

قيل وقال... ومقال

الطبعة ٣

(يوميات فكرية)

تقديم:
نبيل فهد المعجل

قيل وقال... ومقال (يوميات فكرية) عبد المجيد حسين تمراز

عبدالمجيد حسين تمراز

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قيل وقال... ومقال

(يوميات فكرية)

قيل وقال... ومقال

(يوميات فكرية)

عبدالمجيد حسين تمراز



بسم الله الرحمن الرّحيم

الطبعة الأولى: آب/أغسطس 02017م - 1438 هـ

ردمك 978-614-02-3316-4

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف (+9611) 785107

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف (+9611) 786233

إهداء

إلى المكان... والبقعة التي بدأ فيها كل شيء... حياتي العلمية والعملية... الفردية والزوجية... المادية والروحانية... إلى شقتي الصغيرة...

أنا أعلم أنني سأهجرها وأنا أكتب هذه الكلمات، وسوف تُمسح تماماً من الواقع... وهي التي بنيت فيها كل شيء... بيدي وقلبي وعلى عيني... من هناك كتبت لأول مرة وقرأت أيضاً... وهناك لامست ملاكي الصغير ابنتي تالين... وأمّها أيضاً...

أهدي كتابي إلى رحمه التي وُلد فيها... تذكاراً لي ولها... أهديه إلى شقتي ومعبد ذكرياتي...

لقد كان كتابي هذا ومكاني ذاك... كلاهما... نهاية البداية...

شكر

أشكر كل المؤلّفين والكتّاب الذين شاركوا في صناعة هذا العالم... وعالمي الفكري... كل مؤلّف وكل كاتب هو في الحقيقة جبل يثبت هذا العالم من الانحلال أو التلاشي... الكتب هي شخصهم يتحدّث... ومن هذا المنطلق خضت نقاشات وحوارات رائعة معهم أثمرت في الروح والعقل والنفس، وفي كتابي أيضاً... أشكر كل من يصرخ وهو يكتب بـ "اقرأ"... الفعل الخالد الذي فيه نلتقي وبه نرتقي...

تقديم

بعد انتهائي من قراءة أولى سطور وأفكار هذا الكتاب عرفت بأنني أمام كاتب مخيف، انتقى مؤلفه عبدالمجيد تمراز كلماته بحرفية عالية، وصل بـي – رغماً عني – إلى مكان عرفت بأنني أصبحت أسيراً له، في أسر فخم مدجج بفكرٍ راقٍ فاق كل توقعاتي.

تميزت كتابات تمراز بقدرته على اختيار موضوعات مدهشة ليعالجها بأسلوب ساخر كيميائي فلسفي وهو الحاصل على درجته الجامعية في الكيمياء، لا تخلو معالجاته من مواقف مضحكة تدخل في الهموم السياسية والاجتماعية والدينية فهو يسلط الضوء على أمور تمس حياة المواطن البسيط والمسؤول على حد سواء، ولا يفرق بينهما، ويذهب بك إلى عبقرية الإرهاب وتشريح أسبابه بجرأة محسوبة، ومن ثم يعود بك الى فكر التعايش ومفرداته اليافعة ولا ينسى المرور عند الجمال في رومانسية معجونة بسخرية ناعمة. هذا الكاتب لم يترك شاردة ولا واردة إلا وتطرق إليها، عندما تصله فكرة ما فإنه يقتنصها ويعرضها بإسلوب غير تقليدي مع الاستشهاد بكلام فلاسفة وأدباء ومفكرين تجعل منه – قبل أن يكون كاتباً – قارئاً نهماً.

هدف عبدالمجيد من الكتابة أن يرى البسمة على وجوه الناس، وهناك فئة نادرة من الناس لا تهنأ إلا بأن تضحك الناس، إنهم الفنانون، والفنان لا يعيش بدون جمهور، وبعض الفنانين مكانهم المسرح أو الشاشات، ولكن عبدالمجيد تمراز فنان مطبوع ملعبه المختبر.. الكتابة، لا ينشغل بتغيير فكرك، هو فقط يرمي فكرته إليك ويتركك تلعب بها كيفما تشأ.

عبدالمجيد ليس كاتباً ساخراً تقليدياً، هو مطلع معلوماتياً، بارع في اقتناص اللحظة والظرف والموضوع، تلك التي لا يملكها عامة الكتَّاب، هي مواصفات تأتي ضمن شخصيته الأساسية.

ما يميز عبدالمجيد أنك لا تشعر بتعاليه عليك، تحس أنه جالس بجوارك وتكتفي بالضحك أحياناً وبالإعجاب أحياناً أخرى من حديثه وكثيراً ما تدور فكرته في رأسك وتقول لنفسك: "كيف أتى بها بهذه السلاسة والبساطة؟".

هذا كتاب تحمله معك في كل مكان، تقرأ سطرين سريعين في السيارة أثناء التوقف عند الإشارة، عند صالة انتظار مطار أو طبيب، في الطائرة وأجمل اللحظات في القطار مثلما فعلت أنا،" كتاب لا يثقل وزناً ولا مضموناً، والفائدة مضمونة بإذن الله".

يقول عبدالمجيد: "هناك كتب كثيرة حقيقة.. كل كتاب يفتح نافذة من الوعي داخل عقلي.. ولكن الكتب التي تذكرنا بأنفسنا ونستطيع أن نسقط حياتنا عليها هي المفضلة عندنا دائماً. سمعتهم

يرددون في مقاعد الدراسة إن أول آية قرآنية هي "اقْرَأْ" فوقفت عندها طويلاً وتمعنت ثم فكرت بأنه لا يمكن أن يعيش الشخص صالحًا وسويًا لنفسه ثم لمجتمعه حتى يطبق هذه الآية."

عشق القراءة حتى أطلق على نفسه "القارئ المجنون" ونتائج جنونه هذا الكتاب المجنون.

قال وقيل ومقال كتاب عصري يناسب جميع الأعمار وجميع التوجهات والأهم أنه لا يترك فرصة لدخول الملل إليك!

نبيل فهد المعجل

الدمام

التاريخ: 29 - 1 - 2016

مقدمة

الأيام لا تشبه بعضها... وإن حصل ذلك فهي مشكلة في التصوّر الذهني وليس في الحقيقة... أعشق القراءة، ومعها تمرّ أيامي، فالقراءة لا تتكرّر، ولا تتكرّر الأيام معها أيضاً...

ما يحتويه الكتاب هو مجموعة يوميات فكرية عبارة عن نتاج تلاقح أقوال، التي هي بدورها عبارة عن أفكار... قال المؤلف... وقيل إن الكتاب يقول... والقيل والقال مع القراءة لا ينتهي... المقالات هي ما يجمع هذا العالم الخلّاق في قالب... والفكر هو ما يجمع المقالات كإطار عام يتّسع لها وأكثر...

لم أصنّف المقالات تحت فصول معيّنة رغم أن بعضها تجمعه الفكرة والإطار... لأنني أؤمن بأن التصنيف قيمة، كما أن الفوضى المنظمة قيمة أيضاً... بل وقيمة إبداعية... لأن الإبداع ينمو من تزاوج الافكار المختلفة وتصادمها... والذي يساعد الإبداع على الاستمرار هو المتعة النفسية والتجدّد فيها... تقرأ مقالاً يأخذك من العالم وآخر يرجعك إليه... كل مقال هو حال وجدانية مختلفة... ومنبع فكري مختلف...

عند الإنسان مكتبتان: واحدة مادية (خشبية)... والأخرى فكرية (ورقية).

كتابي هو مكتبتي الورقية... ومقالاتي هي الرفوف التي تجمع أفكاري... تمتّعوا بالنظر إليها... فهي لا تختلف كثيراً في الترتيب عن الأخرى الخشبية...

الطاولة والشطرنج

كثيرة هي التشبيهات والتمثيلات التي أُطلقت لوصف وجه العلاقة بين العرب والغرب، سواء فكرياً أو مادياً... لكن من أجمل ما قرأت ومن أقرب ما رأيت لحقيقة الحال هذا الوصف الذي ذكره الأستاذ أحمد بهجت في كتابه "تأمّلات في الحب والحياة" يقول:

"إن لعبة الطاولة لعبة شرقية، بمعنى أن مجال الفكر والتدبير فيها محدود... أما مجال الحظ والصدفة فمفتوحان إلى النهاية... وفي الشرق... حيث تشيع فكرة الجبر بين الناس... ويؤمن كثير من الناس بأن الأقدار توجِّه خطاهم في الحياة، وأن إرادتهم لا علاقة لها بما يحقّقونه في الدنيا...

وسط هذا الجو الذي يعبق ببخور الاستسلام والاعتماد على الحظ، يصير لعب الطاولة وشدّ أنفاس الأرجيلة عملين قوميَّين، وعادة من عادات الحياة...

إذا كانت الطاولة رمزاً من رموز اللعب في الشرق، فإن الشطرنج رمز من رموز اللعب في الغرب... والفرق بين الشرق والغرب، هو الفرق بين الطاولة والشطرنج...

إن الطاولة تعتمد على الحظ، أما الشطرنج فمباراة تعتمد على التدبير والحسابات الدقيقة... وكل حركة يتحرّكها اللاعب في الشطرنج تعني أن على اللاعب الآخر أن يحسب مجموعة من الاحتمالات لحركة منافسه لكي يردّ عليها بما يفسدها...".

ومن هنا نرى أن الفعل اليومي وردَّ الفعل معيار يصف حالة أمّة بعينها، فإذا أردت أن تعرف حال أكبر الأمم فراقب أفرادها ماذا يفعلون ليقضوا وقت فراغهم... ولنتأكّد أن الفكرة المركزية لأمّة معيّنة تتشعّب لتصل إلى أبسط الأفعال اليومية حتى اللعب... فكل شيء حولنا هو أفكار مجسدة... ومن هذا المعيار نستطيع أن نرى بعين أخرى بعضاً من الحقيقة.

ضد التبرير...

أستطيع أن أشبِّه الإنسان بالبطارية... (من زاوية نظر واحدة)... لفترة من الزمن تتقلّص طاقتها وتحتاج إلى إعادة شحن... والفرق بين الموت والحياة لدى الإنسان هو كسر حاجز "إعادة الشحن"...

وفي نهاية البداية... "ما يجمعه الوقت يفرّقه الوقت"...

لقد سمعنا عن ظاهرة بيولوجية تدعى "البيات الشتوي"... وطبعاً أول ما يتبادر إلى ذهننا هي صور وضعت في اللاوعي لدينا قد تكون غير صحيحة وتصبّ في فكرة الكسل والخمول...

ولو راجعنا هذه الظاهرة قليلاً لوجدنا كثيراً من المدلولات المفيدة والعميقة...

ملاحظة: عندما أحلّل الآن الظاهرة فأنا أقصد وبطريقة غير مباشرة إسقاط المعاني على الإنسان، فنستطيع أن نتعلّم من الحيوان الكثير مما يصب في حياتنا مع معرفة الاختلاف التكويني...

أولاً: ما الذي يدعو الحيوان لهذه الظاهرة؟ هل هي ظروف داخلية أم ظروف خارجية؟ والطبيعي أن الداعي هو سبب كوني وسُنّة كونية خلقها الله... أي ليس هناك منطق لمحاربتها لأنها لن تنتهي، بل أنت الذي سوف تنتهي أمامها... فالسرّ يكمن في عبورها بذكاء...

ثانياً: أثناء مرور فصل الصيف، أي فصل النشاط والتدفّق التسهيلي... فإن الحيوان يجمع قدر المستطاع لما هو تمويل وغذاء لفصل الشتاء، أي إنه يفكر (أقصد بالفطرة) في البُعد المستقبلي – ولا تخدعه اللحظة – في بناء قاعدة مريحة منذ الآن لتلك الفترة الصعبة...

ثالثاً: حين يكون في فترة البيات فإنه يغذي نفسه جسدياً (بينما نغذي أنفسنا فكرياً، وهذا هو الفرق) ويقوم جسمه ببناء العلاقات والجسور الجديدة بين خلاياه (بينما نخطّط ونربط الأفكار ونبني لما هو آت)...

إذاً فالحيوان يمهّد طريقه للفراغ وكأن ذلك حاجة فسيولوجية لديه... قد تكون كذلك عندنا بل وأكثر، فهي حاجة فكرية وسيكولوجية...

فالإنسان لا يستطيع أن ينجز من غير فترة الفراغ، بل هي مقام الإنجاز كما عرفنا من أكثر علماء وعظماء العالم...

فالفراغ هو منطقة الشحن لدى الإنسان... أي يدخل من خلالها كل الطاقات الفكرية والروحية والجسدية... وهو في الوقت نفسه طاقة للشحن تعطيه ما يميّزه عن الإنسان الآلي، وتُكسِبه التميّز الإرادي...

ويقول العقّاد في كتابه الذهبي "أنا" في فصل "تعلّمت من أوقات الفراغ":

"وليس معنى "وقت الفراغ" أنه الوقت الذي نستغني عنه ونبدّده ونرمي به مع الهباء، ولكن وقت الفراغ هو الوقت الذي بقي لنا لنملِكه ونملك أنفسنا فيه، بعد أن قضينا وقت العمل مملوكين مسخّرين لما نزاوله من شواغل العيش وتكاليف الضرورة" (ص 116)...

وهذا بالضبط ما أردت أن تنتهي به مقالتي... فأنا عملت هذه اللفة الطويلة العريضة (المفيدة) لكي أصفَ ما مررت به من حالة ضمور وليس من حالة سكون... فالسكون هو الموت... أي التوقف... أما الضمور فهو انكماش مقصود (خارجي) في مرحلة متحركة (داخلياً)...

وأتمنى أن أكون، كما وصف العقّاد، منهكاً من العمل والإنجاز... ففي النهاية هذا العمل كله محاولة "ضد التبرير"...

بين القلم والكتابة والكاتب

اكتب ولو لم يكن لديك ما تكتب... هذا ما توصّلت إليه من قناعة ذات يوم... ليس هناك أعجب من الكتابة مخرجاً من كل ضيقٍ أنت فيه... أو من همّ سُجنتَ داخله... أو من مجدٍ أنت محقّقه... الذي قال إن المجد ليس بالقلم بل بالسيف والدم أخطأ وافترى على خلقٍ أقسم الله به في القرآن، ولا يُعرف المُعظَّم إلا بمن عظَّمه... كفى بالقلم أن الله جعله أداةً لكتابة الوجود... بل هو حاضنٌ للغيب والمجهول... يعلم بما لا تعلم... للمعاني في داخل الإنسان تأجج وفوران في بعض الأوقات، والأحوال لا تهدأ إلا إذا خرجت من الضغط المرتفع إلى الضغط المنخفض، أي إلى الأكثر فسحة ومساحة، وذلك لا يحدث إلا من طريقين: إما الكلام المنطوق وإما الكلام المكتوب... وللأول آفة وهي صعوبة ضبط انفجار المعاني، إذ التحكم فيه أصعب... أما المعاني المكتوبة فهي لا تخرج قبل أن "تتفلتر" في القلم وتنتظم، فتخرج في قوالب متعدّدة... حسب ما تريد... والكلام المكتوب يستطيع أن يغيِّر عوالمَ وأكواناً لأنه يصل صداه إلى ما يشاء الله، بل إنه بكتابته خُتم عليه بالخلود الأبدي... عكس المنطوق، الذي سرعان ما يتبدّد في الهواء الطلق... ولا تستطيع تفعيله من دون طرف آخر في النقاش كالأقطاب الموجبة والسالبة كي يسري تيار الحديث ويعمل... والكلام المنطوق يجب أن تصوغه حسب ما يتوافق مع طبيعة الذي يواجهك في الكلام... فلنقل إنك موافقٌ على ذلك، فستحتاج إلى سرعة بديهة وذكاء كي تستخرج ما تريد وتصوغه حسب فهمه في الوقت نفسه... أما الكلام المكتوب فلا يخرج إلا على طبيعتك فقط... ولا ينطق إلا بما ينطق به قلبك دون قيود... ولا تحتاج فيه إلى مجاملة فورية أو تورية... وقد قال مصطفى لطفي المنفلوطي، الكاتب الأديب المتفنّن... إن الحديث له ثلاثة أنواع (ويقصد ما يُكتب):

"حديث اللسان... وهو ما يُتكلّف فيه ويدقَّق في الألفاظ دون المعاني، ويُقذف بالمترادف وبفضول الكلام دون الجوهر المفيد... وحديث العقل... وهو ما يُتصنَّع فيه بالألغاز ويُركَّب تركيباً عجيباً غريباً، وكأنه مقصودٌ عدم فهمه، يربط آخره بأوّله، وأوله بما وراء آخره، وهكذا وكأن له شفرات كي يُفهم... وأما حديث القلب... فهو ما يُقال أو يُكتب من القلب وإلى القلب، حتى تشعر بنبضات الكاتب في الحروف وتسمع همسه بين الأسطر... إذ لا يحتاج إلى كثرة مفردات ولا كثرة غرائب، إذ يتخيّل الكاتب نفسه وهو بين القرّاء يحاورهم ويجالسهم وهم بين يديه... وكأنهم عائلته يريد لهم النصح بما يفيدهم"...

وكما قال ابن عطاء الله: "إن الكلام يخرج وعليه كسوة القلب"... فانظر ما تكسيه إياه قبل أن تكتبه يا صاح... وأريد هنا أن أذكر أربع نصائح للكاتب ولكل من يريد أن يكتب، وهي منقولة عن "المنفلوطي"، كان يقول فيها إنها هي التي ساعدته على الكتابة الرائعة:

1- "كنت أحدّث الناس بقلمي كما كنت أحدّثهم بلساني"... وهي حديث القلب كما تقدم ذكره...

2- "كنت أرى فأُفكّر فأكتب فأنشر ما كتبت"... أي لا يُستخرَج الكلام والكتابة اصطناعاً وصناعة، بل ما يجول في البال والقلب يكتبه كما يأتي... لا أن يجلس ويقول ماذا أكتب اليوم؟

3- "إن ما أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة"... وهو يقول عن ذلك إن الحقيقة إذا لم تتحلّى وتتزخرف بالخيال تصبح جافة وصلبة خشنة... والخيال إذا لم يُدعم ويقوى بالحقيقة والفائدة يصبح عبثاً وخيالات ذهبية وأحلاماً وهمية...

4- "إني لا أكتب للناس لكي أزيد إعجابهم، بل لنفعهم، ولكي أجد في نفوسهم أثراً ممّا كتبت"... وهي لا تحتاج إلى تفسير...

وآخر كلمة للمنفلوطي يقول فيها: "إن حياة الكاتب بحياة كتاباته في نفوس قرّائها".

رمضان شهر الفيمتو

كنت وما زلت أعشق المنظور الآخر للأمور الذي لا يراه الناس عادة لأول وهلة... وأتحرك باحثاً دائماً نحو هذه المنطقة، التي قد يظن الناس أنها طبيعية أو ناتج "ماما الطبيعة" من أدوات ومخرجات ووسائل إنتاج، ومن تصرفات إنسانية وغيرها... وقد قال سابقاً أستاذي (رحمه الله) عبدالوهاب المسيري في مقابلة له: "إن لكل أطروحة في الوجود مهما كان نوعها رؤية تخبِّئ تحتها نظرية هذه النظرية، هي محاولة لتغيير الواقع أو فهمه بآثار أو نواتج يُرجى الحصول عليها"... صحيح صداع... هو هكذا دائماً أستاذنا الفاضل يسعى دائماً نحو النماذج المركّبة كما تقول صفحات حياته...

كذلك أستاذنا عنده قناعة بأن العالم يزحف نحو ما يُسمى ب. "حضارة السوق"... بحيث يتحوّل كل شيء، وأقول كل شيء، إلى سلعة... قابلة للبيع والشراء، حتى نفس الإنسان وعلاقاته وأحلامه ومشاعره... وأن المبدأ أو المعيار السائد بسبب ذلك هو المنفعة، ويقول في كتابه المهم "العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة": "إن السوق أصبح آلية الاتصال الإنسانية الأساسية، والمجتمع شأنه شأن الاقتصاد، فنحن نتحدث دائماً عن السوق/المصنع، وهذا تجلٍّ لثنائية المنفعة واللذة أو الإنتاج والاستهلاك" (ص 211)...

لقد شرحت هذه المقدمة لكي تكون مدخلاً واعياً لما أريد أن أقوله بالتحديد عن شهر رمضان... ولاحظ أن من أول تجليات هذه اللمحة أن تسمع أنه "شهر الفيمتو"، والفيمتو في السوبر ماركت، فأصبح رمضان رمزية للسوبرماركت، يعني للشراء والبيع... سوق...

وهذه ليست بغريبة علينا، فنحن نعرف كيف تصبح العقلية اقتصادية في رمضان، وكيف يبدأ العقل الجمعي يضع له أحلاماً وأهدافاً يتحرّك وفقها، وهي فرصة الفوز في المسابقات الرمضانية أو الحصول على العروض في محلات الملابس... الذي جعلني أكتب عن هذا الموضوع هو أستاذنا الدكتور جلال أمين عندما يشكو مما يراه ويشعر به في كتابه "ماذا حدث للمصريين" عن مظاهر رمضان... والأهم أنه تكلّم عن قضية خطيرة وهي "الوثنية الرمضانية" واختراع الرموز لذلك... وعلى فكرة، لقد كتب هذا الكتاب في التسعينيات وأظن أن الحال الآن عليه "أس تربيع" أو تكعيب أيضاً... يقول: "عندما كان يحلّ بنا شهر رمضان في السنوات الأخيرة لاحظت أن هذا الشهر قد جرى عليه حكم نظام السوق كما جرى على غيره، إذ ما كل هذا "التسويق" لرمضان أيضاً، وما كل هذا الذي بُذل لتحويل رمضان إلى مناسبة للبيع والشراء. نعم، كانت فوانيس رمضان في طفولتي تُباع وتُشترى، ولكنها لم تكن إلا هدايا بسيطة للأطفال، أصبحت الآن هناك محلات بأكملها لبيع الفوانيس لا تبيع إلا بأحجام عملاقة وصغيرة جداً للأطفال، أو لتزيين مداخل العمارات أو الفنادق وشرفاتها، وتضاء

بالكهرباء، وكاد فانوس رمضان أن يحتلّ مركزاً مماثلاً للمركز الذي تحتلّه شجرة الكريسماس الآن في الغرب، التي تحوّلت إلى رمز وشعار لا يمكن أن يكتمل الاحتفال بالكريسماس بدونه، هكذا تحوّل فانوس رمضان الآن شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح رمزاً وشعاراً لشهر رمضان، وقريباً يصبح الفانوس ركناً من الأركان التي لا يُقبل الصوم إلا بها، مثلما حدث بالتدريج لفوازير رمضان التي أصبحت بدورها سِمة ثابتة من سمات الشهر...

هكذا ترى أن زحف نظام السوق قد أخذ يطبع حياتنا الدينية بطابع وثنيّ. إن نفس الجريمة التي ارتكبها هذا النظام ضد المسيحية يرتكبها ضد الإسلام الآن...

إني أميل للاعتقاد بفكرة نظام السوق... وأننا بصدد زحف خطير... وهو تحويل كل شيء خطوة بخطوة ليصبح محلاً للبيع والشراء حتى روح الإنسان نفسه" (ص 182 – 183)...

وعلى هذا يوضح لنا الدكتور لفتة مهمة عن قضية الوثنية الرمزية التي سأتكلم عنها في مرة قادمة أكثر... والتي تؤول إلى مصيبة حضارة السوق... وعلى العموم، فلتكن هذه إشارة لك تستقبلها بوعي، فالقضية الأهمّ عندي هي ضربات تُوسّع جدار الوعي الضيّق ثم ترتدّ لنبضات تشرح الوجود... وفي النهاية وبكل سخرية: مبروك عليك "شهر الفيمتو"...

الواحدية الأرضية!

واحدة من مميزات الإنسان والعقل البشري وفي الوقت نفسه أخطرها عليه... أنه يريد أن يجرِّد الواقع ويكتشف العلاقات التي بينه وبين أي شيء ليخرج بمنظور كلّي واحد عن الموقف... وكي يستخلص نظرية يريد تطبيقها على أية واقعة ليستخرج منها الغاية والهدف... ولكن مع تقدم الإنسانية بدأت تكتشف أن هناك أكثر من منظور لهذه الأمور، وأكثر من نظرية، ذلك أن الوجود متعدّد وأن الإنسان العاقل ليس هو الوحيد على هذه المعمورة، وأن هذه الفاعلية العقلية لها أيضاً مسارات متعدّدة... إذاً هناك غريزة معرفية للإنسان نحو التوحيد للخروج بنظرية واحدة، ولكن الإنسان أدرك أيضاً بأن هذا لا يعني أنها الحقيقة، لذلك اشتغل على نفسه ليكون منفتحاً على هذا التعدّد، والتفكير بأكثر من زاوية...

المشهد اليوم بالذات في الواقع الإسلامي العقلي يبشّر بهبوط جديد للواحدية على الأرض... وأقصد بها الواحدية الفكرية... وعندما أقول "هبوط" ذلك أنني أؤمن بأن مكانها فوق السماء، صفة لله وحده، هو الواحد فقط بكل المعاني...

ومن المهم والأهم في هذه المقالة أن أذكر تجليات هذه الواحدية على الواقع الإسلامي:

التفسير الأوحد: وهي الظن بأحقية وصحة فهم واحد للنص المقدس، وهذه ذات خطورة عظيمة، ذلك أن النص المقدس نفسه مفتوح الدلالة وحمّال أوجه حتى يستقي كل البشر كلٌّ حسب فهمه حتى تتكامل الحياة... فليس هناك تفسير أو حتى تأويل للنص، هو الحقيقة. وليس هناك علاقة مفاضلة بمعنى أفضل. بل كلهم متساوون كما التساوي في أجر الاجتهاد. وعندما نؤمن بأحقية فهم واحد للنص نصبح في حالة صراع أيديولوجي ضد أي فهم آخر، وتصبح العلاقة المعرفية، بدل أن تكون علاقة بناء وتراكم وتواصل، علاقة تنافر وتكرار وانفصال...

القطب الأوحد: واحدية آلة المعرفة، وهي الاعتقاد بصحة وتوحّد الحقيقة لدى طريقة واحدة للمعرفة. وبذلك نلغي جهد الطرف الآخر مهما تكن طريقته، لأننا الوحيدون الذين نملك الطريقة الصحيحة للمعرفة، بمعنى أن الآخر لا يملك معرفة صحيحة أو "حقيقة بمصطلحهم"... وهذه خطيرة لأنها تلغي الجهد العقلي، لأنه يصبح بلا فائدة طالما أن هناك طريقة واحدة (احتكار)، وعالماً واحداً (أرستقراطية)، وطريقة واحدة (عنصرية)، هي الأفضل... المشكلة دائماً في المفاضلة. أنا لا أنكر طريقته في المعرفة ولا أنكر أنه توصّل إلى معرفة، لكنني أنكر استئثاره، وأنه الوحيد الذي يستطيع التوصّل لهذه المعرفة الحقيقية...

الزعيم الأوحد: القائد السياسي الواحد الذي سيوحّد المسلمين (قبل المهدي)، وسيكون قائد

المسلمين (صلاح الدين الجديد) حتى صلاح الدين لم يحكم المسلمين كلهم!... منطق الإمامة انتهى برأيي... بمعنى أنه سياسياً لا بد للمسلمين من قائد واحد يوحّد صفوفهم ويقودهم نحو الانتصار... علينا أن نعيَ اختلافات الزمان والمكان والوعي بالدين والمجتمع... لا يمكن أن يحصل هذا اليوم... ولكن نستطيع أن نفعل واحدية هي في أصلها تعدّدية كما "الاتحاد الأوروبي"... ومن هنا عندما يظن كل شخص أن قائده هو الأوحد يصبح في صراع أيدولوجي حربي مع الآخر، ظناً منه معرفياً أنه يريد مصلحة المسلمين...

المذهب الأوحد: ليس هناك مذهب واحد صحيح... ولو كان كذلك لالتغت حرية العقل، وبإلغائها التغت مسؤوليّته، وهكذا تلتغي مُساءلته... لن أتكلّم عن تعصبية وواحدية المذهب، فقد تكلم فيها غيري كثيرون. لو أنك كتبت في جوجل التعصب المذهبي لرأيت كمية الكلام الذي قيل...

الفرقة الواحدة... المهدي الواحد... الثقافة الواحدة (الأمريكية)...

الذي أريد أن أقوله: لن يكون لدينا تنوّع فكري وإنتاج معرفي وتنوُّع حضاري منتجٍ ما دمنا نتمسّك بواحدية التفكير، فالحقيقة مكعّبة الوجوه، والوجود تركيبي، والإنسان متعدِّد الأبعاد... وأختم بهذه الرمزية، أنه لم يكن الوجود فياضاً ومتعدّداً وملوَّناً إلا عندما كان هناك أكثر من واحد، وكأن الله يعلّمنا ذلك عندما خلق الخلق...

سورة الزلزلة... وزلزلة النفس

أردت أن أقلّب – كعادتي في كل الأوقات – داخل صفحات الكتب لكي أنظر إلى أول صفحة تنفتح لي... كي أرى ماذا يوجد فيها، علّها تكون لي علامة، كما يقول الغزالي في "الإحياء في القرآن"، أو دليلاً أسترشد به... ففتحت تفسير القرآن الموضوعي للشيخ محمد الغزالي المصري، فوقعت عيناي على سورة الزلزلة، فبدأت أقرأ... حتى انطلقت خيوط الفكر والوجد تتصل في ما بينها إثر المقالة التي كتبتها قبلاً، ورحت أقارن في ذلك، حتى ألقى الله لي هذا الفهم وهذه الإشارة إلى السورة في محاولة استيعاب معنى... إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا... أي إذا تزلزلت نفسك أو فكرك أو حالك ذلك الزلزال العنيف كما في لحظة الحادث المميت (زلزالها)، إشارة إلى قوة التقلّب والحيرة والتشوّش... وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا... بدأت الهموم والأفكار والماضي الخاطئ والخيّر... بدأ يخرج ويفور ويغلي كما في الماء المغليّ... وتخرج من أرض نفسك الأسرار والخبايا، وما كان يُثقلها من كل شيء... في هذه اللحظة يبدأ الإنسان يستغرب ويقول "ما لها" وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا... ما هنالك... لم تأتِ في حياتي لحظة كهذه يحدث فيها هذا الخلط بين الماضي والحاضر والمستقبل... بين الأضداد والمتقابلات... بين شرّ وخير... يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا في هذه اللحظة عندما تدرك بأن الله هو الذي أمرها بذلك تبدأ تخاف من السرّ وراء ذلك...

تبدأ تشعر بأنك مراقب... تبدأ تدرك بأن هناك أهدافاً ومعانيَ ليست بسيطة وراء هذه الزلزلة... إذ هي بأمر الله، والله شهيد... في هذه اللحظة... يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ... هنا تتفرّق مذاهب الناس في هذه الزلزلة أشتاتاً، كلٌّ له رؤيته ونظرته تجاه اللحظة والحال، لكن كلهم مشتركون بشعور أن هناك حساباً في عرض هذه الأمور، إما تُجمع وإما تُطرح من بعضها، إما موجب وإما سالب... هناك تختلف المذاهب، لكن تحتاج إلى توجيه سماوي... نحتاج إلى الرؤية الصحيحة والمنظار الأدقّ... ما هو يا ترى؟... في لحظة هذا التساؤل أثناء اختلاف وجهات النظر والأعراض النفسية يأتي الوحي بالقاعدة فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ... هنا يأتي الجواب كما أتى للصحابة عندما تساءلوا عن الصغائر والتهاون بها، فنزلتْ سبباً لذلك... نزلَتْ كي تحقّق معنى العدل والميزان في الدنيا... وأن كل ما رأيته وما اعتراك من مشاهد كلها مسجلة برصيد إما خير وإما شر... تشعرك الآية بأن تقطع التفكّر في ما سبق وإضاعة الوقت... تشعرك بالاندفاع نحو العمل الآن في هذه اللحظة الآنية كي تعوّض... هذا العدل مطلوب حتى مع نفسك كي لا تكون سبباً في الزلزلة كما تفعل بعض تصرّفات الإنسان الطائشة مع البيئة وتسبِّب إتلافها...

هكذا خرجت بهذه التأمّلات بمعانٍ مفيدة وتأكيدات على حدوث اللحظة التي قد تأتي لأي شخص... وعلمت أن القرآن لكلّ زمان ومكان، ولكلّ حدث ومخلوق، لكل ظاهر وباطن... فكيف

بأحوال الإنسان إذ هو الكون الأكبر ومِحوَره... ونزل القرآن عليه وهو محطٌّ الاهتمام في الشرائع والتنزيلات...

العبقرية عند شوبنهاور...

أرثور شوبنهاور هو فيلسوف مهم جداً، إذ إنه تلميذ ل. "كانط" وأستاذ ل. "نيتشه"... ويلقَّب بفيلسوف التشاؤم... وإذا أردت الزيادة فابحث عنه بنفسك... ليس هذا هدفي هنا...

لشوبنهاور نظرة خاصة للعبقرية... أجملتها في نقاط متتالية مركّزة... لأنني لو فصّلتها كما فصّلها هو لأصبح المقال مخدِّر للنعاس السريع... وهذه هي النقاط:

1- العبقرية لا تتميز إلا بالمعرفة... والمعرفة الحدسية فقط التي ينفذ بها الإنسان إلى أعماق الأشياء، بحيث يصبح هو وإياها شيئاً واحداً.

2- العبقرية تحتاج إلى الخيال حتى يرى في الأشياء... لا ما صنعته الطبيعة بالفعل... لكن ما حاولَت صنعه.

3- العبقري مكرَّس لخدمة الإنسانية كلّها... كما أن العقل العادي مكرَّس لخدمة الفرد.

4- العباقرة جميعهم مكتئبون.

5- العبقري يضحّي بسعادته الشخصية في سبيل غاية موضوعية... وهو يعرف الإنسان أكثر ممّا يعرف الناس.

6- العبقري لا يستطيع أن يتكيّف مع عصره.

7- العبقري في صراع دائم مع عصره لأنه لا يعيش له... وإنما للأجيال القادمة.

8- العبقري يشابه المجنون في بعض الوجوه: المجنون لا يتّخذ مبدأ العلّة في تفكيره، وهنا نقطة الاتصال مع العبقري... والعبقري والمجنون يركّزان على اللحظة الحاضرة في الزمان دون غيرها.

9- والعبقري يملك بعض صفات الطفولة: ذلك أن العقل عنده يتغلّب على الإرادة، أي الميول والشهوات والعاطفة... فكلّ طفل عبقريّ بمعنىً من المعاني، وكل عبقري طفل بصورة من الصور.

10- العبقري عقله متحرّر من العبودية ليعمل لحسابه الخاص، أو ليكون سيداً لنفسه.

11- العبقرية مصاحِبة للحزن... ذلك أنه كلما كان النور الذي يضيء العقل قوياً كان إدراك العقل لسوء حالته أوضح وأدقّ.

12- ليست قيمة العبقري في الشهرة والنجاح والمجد... بل في ما يخلقه من آثار خالدة.

13- هناك فرق بين القريحة والعبقرية: صاحب القريحة ممتلئٌ بروح عصره، ميّال إلى سَوْق أفكاره في اتجاه حاجاته... والعبقري يعيش في المستقبل.

14- هناك عداوة بين العبقري والمرأة: ذلك أنهم يُخضعون العقل للإرادة... وقد يكون للنساء موهبة عظيمة لكن ليس لديهن عبقرية... لأنهنّ دائماً يبقَينَ ذاتيات، كلّ شيء عندهنّ شخصي، ويرونه على أنه وسيلة لغايات شخصية.

15- العبقري، لبُعد نظره، لا يرى الأشياء القريبة... وهو عديم الفطنة وعجيب.

16- العبقري ليس اجتماعياً بطبعه لأنه يفكر بما هو جوهري وخالد وعام... بينما يفكر الآخرون بما هو مؤقت وخاص ومباشر... من ثم فليست هناك صلة بين عقولهم... والقاعدة العامة أن الإنسان يكون اجتماعياً بالدرجة نفسها التي يكون عليها عقله من الضعف.

هذه بعض الملامح في زاوية العبقرية في نظرية الأخلاق لدى شوبنهاور... فهي جداً أعجبتني وهمّتني كثيراً، لذلك وضعتها لكم عسى أن تجدوا فيها بعض السلوى لأحوالكم... أو تكون طوباً معرفياً لأي بناء قادم...

ملاحظة: أرجو أن تقرأو وتتعرفوا أكثر إلى الفيلسوف صديقنا شوبنهاور، لأنه جداً مهم، وأحد المؤثّرين في الفكر الغربـي كله.

فكر الروابط... وفكرة التعايش

أكثر ما يواجه الناس من مشاكل مع القراءة التي هي عملية تفعيل الكتاب... الروابط المعدومة... يعني أنه لا يوجد روابط من الأساس... والذي أقصده من الروابط هو المعنى أو الفكرة التي تكون بينك وبين الكتاب أو فعل القراءة... وكما قال حسن عجمي في "البينياء"، فإن الذي بين الأشياء هو الذي يحدّد الأشياء، لا هي بذاتها... يعني العلاقة والرابطة التي بينك وبين الكتاب هي التي تحدّد ما تريد... وما موقعك من القراءة وعدمها، ومن تقبل الفكرة ومن رفضها... وقد قلنا سابقاً إن نوعية الرابطة تختلف من شخص إلى شخص ومن كتاب إلى كتاب... فإما أن يفرض تلك العلاقة، وإما أن الكتاب هو الذي يفعل أحياناً...

ومن أمثلة تلك الروابط... أن تكون الرابطة بينك وبين الكتاب رابطة فلسفية تقول: إذا أنا لم أقرأ فلن أعرف ما يجري من حولي وفي داخلي، أما بالقراءة فأعكس ذلك على نفسي، وبالتالي أبدأ بزيادة وعيي وتثبيت نفسي كإنسان واعٍ في وسط المجتمع، وكما يقول توفيق الحكيم في التعادلية: أدفع المجتمع عن ابتلاعي... فيكون لي ذات مستقلة واعية ومفكرة... أنا اقرأ إذن أنا موجود... وبالتالي يحتّم عليّ ذلك أن استمرّ في القراءة...

وهناك رابطة دينية تقول إن الله تعالى قد أمرنا بذلك وقال: قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ... (العنكبوت: 20). فأمرَنا أن نقرأ في قرآنه وأكوانه والكتب لنرى ماذا حدث في السابق والذي سوف يحدث الآن وقد يحدث مستقبلاً... وقد أمرَنا الله صراحةً في القرآن ب. "اقرأ"... ونحن لن نستزيد من ديننا ونتعمّق فيه أكثر من غير قراءة في فكر علمائه ومصادر تشريعه... إذاً لن أصبح متديّناً بحق إلا إذا قرأت... إذاً يتحتّم علي أن أقرأ...

وهناك روابط شعورية عاطفية... وهي أن الإنسان يشعر بأن الكتاب جزءٌ من حياته ونفسه... لا يستطع التنفس من غير أن يشهق بكتاب ويزفر بقلم... ويشعر الشخص أن الكتب ممزوجة بلحمه ودمه، فالكتب مادة حياته... ولا يهمّنا كيف تكوّنت تلك الرابطة الجميلة... لكن نعرف ونعلم أنها موجودة... وأنا شاهد عليها... واسأل مجرِّباً...

أو أنها رابطة فطرية... طبيعية... أي أن يولد الإنسان وهو قد يرى الكتاب قبل أمّه... يعيش في بيئة مكوَّنة جدرانها من الصفحات، ومن أسرة هي أم + أب + كتاب... فيسمع القراءة وهو في بطن أمه، وبعد الخروج وأبعد من ذلك...

كما قلت، لا يهمنا كيف تكوّنت تلك الروابط... لكن المهم كخطوة أولى أن تعي بأن هناك روابطَ ويمكن أن تخلق تلك الروابط... فالإيمان بالروابط إيمان بالذي يُربَط، ومن هنا تبدأ تؤمن

بالكتاب وبأنه موجود في حياتك... وهنا مربط الفرس...

من المهم إيمانياً ونظرياً أن تعتقد بأن الكتاب موجود في حياتك... يعني لا يتبقّى عليك إلا أن تختار الرابطة التي تناسبك معه، ثم تبدأ بالتحليق بها على دفّتيه...

وكخطوة عملية لذلك... اختَر كتاباً ترتح لمؤلفه وتحب وتعشق موضوعه... ثم ضعه معك يوماً كاملاً أينما تذهب 24 ساعة (من غير أن تقرأه)... إذا جلست أمام التلفاز ضعه أمامك أمام ناظريك... إذا دخلت الحمام ضعه أمامك (لا تسأل كيف... تصرف)... إذا دخلت غرفة النوم ضعه بجانبك لكي تراه... وفي السيارة وفي العمل... لماذا؟ لكي تبدأ نفسك تعتاد على وجودية الكتاب، وأنه جزء من حياتك، وأنه شيء طبيعي وعنصر من عناصر أشيائك... هنا تكون قد اجتزت العقبة الأولى لدى كثير من الناس... وتبدأ بعد ذلك – أو تأتي هي إليك – بموضوع الرابطة التي بينك وبين الكتاب... فمدة تكوينها وخلقها في رحم الزمن لا تتعدى 24 ساعة من المجاورة واللمس الدافئ تماماً، كالكتكوت الصغير في البيضة...

هذا ولتعلم أن الكتاب كائن حيّ مستقلّ بذاته... والكائنات الحية اجتماعية بطبعها... إذ الحياة لا تستمر بواحد وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ...... فأنت والكتاب في حاجة أحدكما للآخر، أو وجودكما معاً هو ما يضمن لكما الاستمرار... فالحلقة المفقودة... هي فكرة التعايش...

نحو أدب الثورات

اعتقد أنني لم أسمع كثيرا بهذا المصطلح "أدب" بالذات في ميادين الثورات، ذلك أن ما يخطر على بال القرّاء بكلمة ثورة هو أنها منطقة تتّصف بالواقعية البحتة والجدية والعصرية، والأهم من ذلك المادية، أقصد منطق "الجنزير والرشاشات"... مع أن الثورة هي كمفهوم إسلامي رائع تضرب جذور معانيها في التاريخ والحضارة الإسلامية، بل والأجمل من ذلك أنه لدينا من الأحداث والمفاهيم ما يشكّل ما يُدعى ب. "أدب الثورة"...

هنا أحب أن أوضح عدة أمور حتى لا أُفهم بطريقة خاطئة بالذات في ظل هذه الأحداث المتسارعة والمؤثّرة:

- إنني أؤمن بأن التغيير الحقيقي لا يكون إلا في عالم الأفكار سواءً كان ذلك من "الداخل" إلى "الخارج"، أو من "الخارج" إلى "الداخل". المهم أنه يجب أن تتضمّن أي ثورة سياسية ثورة عقل...

- ليس هناك ما يُدعى بالواقعية "شيء ملموس"، ذلك أن أي ثورة تبدأ "ميتافيزيقياً" كشجاعة وأمل وروح وغضب وتفكير وخيال وذاكرة تاريخية...

- الأدب يُعتبر من أقوى العناصر الفعّالة في التغيير، ذلك أنه يصبّ مباشرة في منطقة الإحساس والنفس البشرية، التي هي محطّ الإرادة والطاقة الروحية...

وأعقّب على النقطة الأولى: لقد كنت قد قرأت سابقاً بأن الثورة الفرنسية المعروفة (1789) قد اندلعت بعد أن حدثت عدة تغيرات ثورية في مجال العلم والفكر والمعرفة والاجتماع، فكانت الثورة السياسية هي آخر حلقة في سلسلة مرتّبة من "الداخل" إلى "الخارج"... لكنني أعرف بأن النماذج الثورية لا تنطبق دائماً على مستوى واحد في الحدث في العالم، لأن كل دولة – إذا صح التعبير – تحتوي على عوامل ومكوّنات تختلف عن الأخرى، ويكون لها دور فاعل في عملية التغيير... وهنا أقصد عالمنا العربـي... ذلك أنه يتبادر إلى ذهننا السؤال: لماذا لم تحصل بعض تلك الثورات الضخمة في باقي المجالات العلمية أولاً؟ وبالتالي يتبادر إحساس بالخطر من هذه الأفكار... لكنني أؤمن أننا في عالمنا العربـي لدينا معادلات مختلفة تماماً عن بقية العالم... لقد أثبت الواقع المرير أنه يجب علينا أن نقلب المعادلة، وهذه هي الطريقة الوحيدة في هذه الحالات لكي يكون التغيير من "الخارج" إلى "الداخل"... أي من النظام السياسي حتى يتّجه نحو النظام الاجتماعي والاقتصادي والفكري والثقافي، وهكذا... فهذه إحدى النقاط التي أحب أن أذكرها قبل أن أدخل في صلب أدب الثورة...

لقد بدأت رحلتي بهذه الكلمات التي تقول: "في هذا الكتاب نقدّم – الإسلام الثورة – لا كفكر نظري مجرّد، يمكن أن يختلف عليه البعض... وإنما نقدم – الإسلام الثورة – واقعاً تجسد في مسيرة هذا الدين وواقع الذين آمنوا به عبر تاريخه الطويل والعريق... ففي مختلف الميادين التي برز وبرّز فيها هؤلاء الأعلام الذين يقدّمهم هذا الكتاب، كانت حياتهم وإنجازاتهم – الفكرية والعملية – المصداق والتجسيد لثورة الإسلام ضد "الجمود" و"الرجعية" و"الخرافة" و"ضيق الأفق" و"الظلم الاجتماعي" و"الاستبداد"... إلى آخر القيود التي تطمس الطاقات الخلاقة التي وهبها الله، سبحانه للإنسان... ذلك "الجرم الصغير" الذي انطوى فيه العالم الأكبر... كما قال – بحق – أسلافنا العظام...".

كانت هذه كلمات المناضل الرائع الدكتور محمد عمارة، الرجل الذي آمن بثورية الإسلام وجسّدها في كتاب بالنسبة إليّ هو أول لبنة في بناء أدب الثورة، وهو كتاب "مسلمون ثوّار"... لقد جذبني عنوان الكتاب وأنا في المكتبة من قبل أن تنفجر الأحداث في عالمنا العربي، ذلك أنني لم أعهد باجتماع الكلمتين أو صحة اجتماعهما (إسلام – ثورة)... وأعتقد أنه كان ضيقَ أفق من عندي حتى أنار لي هذا الكتاب المعانيَ الإسلامية الجميلة المتأصّلة لكلمة ثورة... قد يسأل البعض عن سبب تأليفه هذا الكتاب الذي يؤكد على ثورية الإسلام، وأدع الدكتور يجيبهم في مقدمته الثالثة بعد الطبعة الرابعة من الكتاب فيقول:

- إن الإقبال المتعاظم على "الإسلام السياسي" والآمال الكبار المعلّقة على صبغ مشروع نهضتنا الحضارية بصبغة الإسلام... إن هذا الإقبال وهذه الآمال تقابلها وتعارضها "مخاوف" البعض من إسلامية النهضة الحضارية المنشودة، و"عداء" البعض و"تآمره" ضد استلهام الإسلام كإطار لمشروع حضاري...

- أن يطَمئن "المخلصين" الذين يتخوّفون من إسلامية النهضة عندما يقدم لهم الإسلام الحق "ثورة" تنهض بالواقع وتدفعه إلى الأمام على درب التقدّم في كل المجالات وفي مختلف الميادين...

- وأن يثبت من يقين "المسلمين الثوار" بإسلام الثورة وثورة الإسلام...

برأيي إنه من المهم أن تؤصّل كلمة الثورة في حضن الإسلام، وتطَمئِن كل الثوار في العالم العربي والإسلامي، حتى لا يتردّد أحد في حمل معاول الهدم البنّاء عندما يقلّ الحديث عن الإسلام والثورة وأدب الثورة الإسلامي. فالكتاب عبارة عن نماذج من تاريخ حضارتنا الإسلامية ونبضها، عن مسلمين ثوّار كانوا قد غيّروا عدة ميادين وأحداث في كل الاتجاهات الفكرية نحو الأفضل... نماذج منذ البداية الأولى كسيدنا "عمر بن الخطاب" وتجسيده العدل بين الناس... وسيدنا "أبي ذر الغفاري" وانتفاضة العدالة الاجتماعية... وسيدنا "علي ابن أبي طالب" وثورة الفكر الاجتماعي... حتى في وسط التاريخ الإسلامي ك. "الحسن البصري" وأنه فيلسوف يشبه الأنبياء... و"عمرو بن عبيد" الثائر الزاهد... و"علي بن محمد" وثورة الزنج العربية... و"الماوردي" وطور ثوري في الفكر السياسي... إلى اقتراب الشريط التاريخي منا... ك. "عمر مكرم" شيخٌ يقود الأمة... وك. "جمال الدين الأفغاني" وثورة البعث والإحياء... وك. "خير الدين التونسي" واستلهامه الإسلامي للتنظيمات الأوروبية...

وك. "عبدالرحمن الكواكبـي" ضد الاستبداد... وك. "الشيخ محمد عبده" وثورته بتجديد الدنيا بتجديد الدين... إلى "عبدالحميد باديس" وثورته في نهضة شعب جريح...

ويقول الدكتور معقباً لما أقصد:

"إنهم ثوار... مسلمون ثوار... وهم بذلك مقيمون الدليل، أصدق الدليل، على استمرارية الثورة في حياة أمتنا ومجتمعاتنا... بل على أن هذه الاستمرارية لروح الثورة في أحشاء هذه الأمة إنما تقف في مقدمة العوامل التي حفظت لها وجودها، فصدّت موجات الإبادة، واحتفظت لها بوحدتها فانتصرت على عوامل التمزيق...

وإنه لأمر ضروري ومهم أن تكون حياة هؤلاء الأعلام وآثارهم الثورية في عقولنا وقلوبنا ونصب أعيننا... وبين يدي الجيل الذي سينجز ما بدأوه... يحقق الأحلام التي ناضل من أجل تحقيقها هؤلاء المسلمون الثوار...".

هذا ما كنت أقصده بأدب الثورة وأكثر... وهو عرض نماذج ومفاهيم إسلامية عن ثورة اليوم ومعانيها تكون كبسولة طاقة باعثة نحو التجديد والأصالة في الوقت نفسه، والانتماء إلى المرجع الذي نريده مرجعنا الاسلامي... فالأدب هو تراجم وقصص وشعر وخواطر وتأصيل أخلاق (أخلاق الثورة) وتوجيهات دينية وأكثر...

وفي النهاية أردت أن أوضح نقطة خطيرة جداً، أنا أهتمّ بها شخصياً، وهي رؤية الزوايا الأخرى التي لا تُذكر كثيراً رغم أهميتها. فمصطلح الثورة لا يعني "ثورة السلاح والغضب" فقط، رغم أهميتها أحياناً، بل هناك معانٍ أكثر في لغتنا العربية وتاريخنا الثوري (وهذا قد يكون بحثاً أدبياً في الثورة). وكنت أريد التحدّث شارحاً، لكن ملخّص الكتاب الذي أنا بصدد قراءته يكفي ويكفيني جداً للتوضيح. يقول الدكتور محمد عمارة في كتابه "مسلمون ثوّار":

"ليست "السياسة" هي الميدان الوحيد "للثورة"، وليس ثوارها هم كل أعلام هذا الميدان... ففي "الاجتهاد" ثورة على "التقليد"... وفي "الجهاد" ثورة على "الاستسلام"... وفي "التجديد" ثورة على "الجمود"... وفي "الإبداع" ثورة على "المحاكاة"... وفي "التقدم" ثورة على "الرجعية والاستبداد"... وفي "العقلانية" ثورة على "بَلادة النصوصيين"... بهذا المفهوم الشامل يقدم هذا الكتاب إبداع حضارتنا بميادين "الفكر" و"الفعل" الثوري... من خلال حياة وإبداع المسلمين الثوار، الذين صنعوا معالم هذه الحضارة عبر تاريخها الطويل... إنها صفحات مشرقة، تشحن العقل والوجدان بالكبرياء المشروع... لنواجه التحدّيات... ومعالم بارزة تستنهض الهمم والعزائم كي تسلك ذات الطريق!..."([1]).

فهيّا بنا نحو تعزيز وبناء "أدب للثورة" نكمل فيه النماذج الذي ذكرها الدكتور في كتابه حتى يومنا هذا من شخصيات ومفاهيم وأخلاق وأفكار...

كُتّاب نوبل

أعشق هذا الكاتب، هذا "الرمز" بكل ما تعنيه الكلمة من إيجابيات وسلبيات... هذا الكاتب وهو يكتب كأنه يحبس الوجود عند طرف قلمه، يحرّك فيه ما سكن ويسكّن ما تحرّك... تغير مفهوم الكاتب في عصرنا اليوم، فلم يصبح في برجه العاجي يكتب ثم يرمي نتاجه إلى ما "دون"... ولم يمسِ في خلوة موحشة تُخلق حولها الأساطير... لم يستمرّ في قضاياه الميتافيزقيه أو الرفاهية العقلية...

الكاتب اليوم جزء من حياة الناس، يعيش في قلوبهم ليرى فيها، ليُحيي ما هو ميت... أصبح يجوب الشوارع حتى يفعّل حواسه التجريبية فيرى ويسمع ويشمّ ويتذوّق ويلمس... ومع تغيّر هذه المفاهيم تغيّر أيضاً مفهوم فردوس الكاتب... بل هبط فردوسه من المُثل الأفلاطونية إلى الهموم الأرضية...

... كنت اقرأ قبل فترة في كتاب رائع اسمه "ثورة نوبل"، وهو عبارة عن حوار مع ستة عشر كاتباً حائزاً جائزة نوبل للآداب. والغريب أن اسم الكتاب يحمل ذلك البُعد الثوري الأرضي، ولكنه ليس بالغريب عندما نرى أن هؤلاء الكتّاب هم في الدرجة الأولى أصحاب قضايا يحملون همّها ويعانون من أجلها. ولمزيد من المعلومات والمتعة راجع الكتاب "دعوة استفزازية لقراءة الكتاب"...

والآن سأقوم بعرض بعض المقولات لبعض الكتّاب... أعجبتني ورأيت بذوق شخصي وتحيّزي أنها تستحقّ أن تُدوَّن:

نجيب محفوظ: "لم يعد في وسعي القراءة ولا الكتابة... ولكن أصدقائي هم عيناي وأذناي وريشتي".

في. أس. نايبول: "اليوم بشكل خاص علينا معشر الكتاب جميعاً أن نحيط بالعالم أجمع".

كينزابورو أوي: "أدافع عن وجود الفرد بصفته كينونة مفكرة مستقلّة... وأن البحث عن كل الطرائق الممكنة للتواصل يستحق العناء".

ديريك وولكوت: "في كل مرة يجلس فيها المرء وأمامه الأوراق البيضاء يعود إلى نقطة الصفر، فتزول أهمية ما سبق".

ويسلاوا زيمبورسكا: " عمري ثلاثة وثمانون... ولديّ الكثير من العيوب وخصلة حميدة واحدة... الفضول لمعرفة كل شيء... هذا هو دافعي".

داريو فو: "السخرية هي أكثر الأسلحة فاعلية في وجه السُلطة".

....

....

....

الكتاب... علمني أن الكاتب إنسان يعاني آلام القارئ...

أكره الصيف (نسخة ألفية)

عندما أردت الكتابة عن الصيف – وصدقوني هو أمر يجب أن أفعله حتى أخفّف من ضغط حرارته عليّ وإلا خرج على أحدهم – المهم... تذكرت أن العقّاد الكاتب العظيم كتب مقالة في كتابه "أنا" بعنوان "أكره الصيف"... وهو تقريباً نفس الغرض والهدف من كتابتي لهذه المقالة ولن تكون بعنوان أفضل من "أكره الصيف" ولا جملة أقرب للقلب من هذه له: "إذا لم يكن بد من طلب الدوام... فليدُم لنا فصل الشتاء وليذهب عنا الصيف حيث شاء". لذلك فإن مقالتي هي نسخة انطلقت من نفس الدافع... ولكن عندما قلت "ألفية"... أي في زماننا الحاضر، وهناك معنىً خطير أردت توضيحه عندما ذكرت لفظة زمنية بجانب العنوان... ذلك أن صيف العقّاد لا أظنه يقارب حرارة صيفي... لقد ارتفعت حرارة الأرض بفعل الاحتباس الحراري (سمعناها كثيراً)... لكن علاقة هذا بفصل الصيف أنه – ويا للأسف – ارتفاع أكبر في درجة الحرارة المناخية... والحرارة المقالية أيضاً...!

الص. ولعة – شطشطة – حرّاق – زي النار – جهنم يف... ليس هناك وقت في الدنيا أحس فيه بحرقة الجسد والقلب مثله... أنا عادةً في غير الصيف أتعب تعباً شديداً عندما تكون الشمس في وسط السماء وتبدأ الاستبداد بالأرض. أظن أني أكره الاستبداد بكلّ أشكاله منذ صغري في أبسط الأمور... وبرأيي كما أن هناك ساعة ذهبية كما يسمّيها الدكتور عبدالكريم بكار وعلى قانون لكل موجب سالب... هناك ساعة نحاسية من (النحس)... حيث يكون الإنسان في أقصى درجات التعب الجسدي والنفسي... فالموضوع مرتبط بالشمس... ودائماً ما يُعرف الصيف بالشمس والشموسة والتشمّس والشمسية والشماسي... وكأن الشمس هي رمز الصيف وبطلته... المهم: أنا وهي لا نتّفق، هذه الشمس، وليس غريباً أن أكتب مقالاً اسمه "نقد الشمس"... لأنها مرتبطة بساعتي النحسية... فلكم أن تتخيّلوا حالتي في فصل الصيف الذي أصبحت فيه ساعتي هي يومي بل كأنها الأبد...

فصل الصيف فصل زمني... أي ظرف زمان... وهذا ما يعطيه القوة الإضافية للأسف، لأن الزمان متفوّق على المكان أو يشمله، وكأنه – كما يقول آينشتاين – البُعد الرابع للمكان... فأين الهرب... البيت فرن... والسيارة ميكرويف... والدركسيون (الطارة)... تندوري...

يقال إن الحرارة تولّد زيادة الحركة... صحيح عندما تكون حركة الانفجارات العصبية... أو الحروق الجلدية... أو الحركة الأسموزية للعرق... لأنه في فصل الصيف يكتسب العرق من قوة الحرّ خاصية إسموزية لدرجة أنه يتحرّر من الجاذبية... جاذبية... نعم ستتحرّر منها... طبيعي... لأن شكلك سيبدو على الدوام وكأنك خرقة في منشر غسيل... ولمن لم يستخدم كل أنواع المناعة الروائحية... فليس هناك إلا الدعاء حوالينا ولا علينا...

الإنسان محور الوجود... وفي فصل الصيف بوتكاز الوجود... نعم، لا ننكر الحركات النشطة للإنسان في هذا الفصل بكل الإيجابيات... لكنني أتحدث عن نفسي... وهكذا بالذات في فصل الصيف يكثر الحديث مع نفسي بحثاً عنها وخوفاً من تبخّرها... وحديث النفس مهم لأنه يغربل المرتكزات والعقائد، والإنسان مع نفسه يستطيع التحليل أكثر لأنه ينفرد بعقله ووجدانه. وكما يقال، العقل الجمعي أقل فاعلية... المهم أنني توصّلت بعد التأمّلات الكثيرة لحقيقة هي تصحيح لحقيقة أخرى... أنا أشغّل المكيف إذن أنا موجود...

لن تجد مخلوقاً بشرياً "يستطيع"... أقول "يستطيع" لأنني، وفي المملكة العربية السعودية أعرف أن هناك سعوديين يعيشون بلا مكيّفات في فصل الصيف!... في اللحظة التي نسمع فيها أننا أغنى دولة في العالم (وهي حقيقة)... أقول: لن تجد مخلوقاً بشرياً بلا مكيّف... فإذا أراد علماء الأنثروبولوجي (علم الإنسان – وهو قسمان: إما دراسة ثقافته وكيانه أو دراسة آثاره على الأرض) أن يعثروا على الوجود الإنساني بعد مائة سنة ويتتبعوا آثاره... فمن المؤكد أنهم سيبحثون عن مادة الفريون أو حديد المكيّفات...

والمكيّفات تحتاج إلى طاقة كهرباء عالية... وأنا لا أحدثّك عن الفواتير الباهظة التي هي جزء من مسرحية الصيف القاتلة... من جهة أخرى فإن ضجيج المكيّف باستمرار يولد ضجراً وأذىً للأذن على المدى البعيد... الكهرباء عادةً تولّد حرارة... لكن حرارة الصيف هي التي تولّد الكهرباء، وقيصرياً...

مع الأسف، عليّ أن أوقف هذه الفضفضة... كي لا يطول المقال وتصبح قراءته مملّة... وعليّ أخيراً، سعياً نحو العدالة والتوازن أن أذكر مقولة العقّاد في فصل الصيف: "وحسبك من الصيف أن يعطيك لحظات معدودات تحسّ فيها بالكون كلّه بين يديك... مخلوقاً لك بغير منازع ولا شريك...".

أنا لا أعرف كيف قال هذا الكلام ولا إلى أي شيء يستند... لكنني أظنه يحاول أن يضع لمسة إيجابية في مقالته... أما أنا فأفضل أن أكون صريحاً أكثر... إذا كان الدكتور مصطفى محمود سمّى بيته أو زوجته جهنم الصغرى... فهو أخطأ...

فصل صيفنا... هو جهنم الصغرى بامتياز.

ملكوت العقل

كنت أقرأ يوماً في نظريات التطوّر وتكوُّن الإنسانية للبحث عن هذا اللغز الغريب وهو الأصل الإنساني...

وخاصةً الميزة الإنسانية التي تعطيه تلك المرتبة العالية بين المخلوقات...

بدأت الرحلة من نظرية داروين، مروراً بنظرية الصدفة والحاجة، إلى فرويد والغريزة الجنسية، وكنت أعلم من قبل بنواميس ديننا وأننا خُلقنا ونزلنا، أو بالأحرى هبطنا، إلى الأرض، لأنني إنسان مسلم يعيش في مجتمع مسلم متديّن جداً، لدرجة أنه يقدّس الفكرة فيغلّفها بغلاف يمنع اختراقها للتدقيق والتمحيص والمراجعة، وإن كان من باب الفهم عن اقتناع. لكن هذه الحال لم تكن تعجبني يوماً، فكنت أؤمن بالتفكير، وبأن لكل شيء سبباً ومقصداً. ولم يكن عقلي يخجل أو يخاف من مناطق معيّنة فكنت أرتحل مع عقلي إلى كل الزوايا والخبايا وصولاً إلى الهِداية...

كنت أريد السرّ وحلّ اللغز. هذا ما يدعوه مصطفى محمود في كتابه العجيب "لغز الحياة"...

هل هو التنفّس أم الحرارة أم الشكل أم ماذا... فبدأت بطرح سؤال وصولاً بالتدرّج إلى الحلّ، وهو ما العامل المشترك لنا نحن الأحياء؟

لو تفحّصت كل شيء في الوجود لوجدته يعقل ما يصنع... أي أن الكتكوت يفقس في وقتٍ معيّن ملائم له من مكان ملائم... والأحماض الأمينية تتراصّ في ترتيب لتكوِّن البروتينات بطريقة دقيقة... ولو قلنا إن العقل هو المخّ، هذا الجهاز المعقد، إذاً لقلنا من أين لهذه النبتة حين تتخلّص من ورقتها الصفراء التي جُمعت فيها السموم ذاك المخّ، إذاً ليس العقل محصوراً في محدودية التكوين المادي.

إن العقل مبثوثٌ في كل شيء... كل شيء... والوجود كلّه عقل...

إن إثبات الوجود لشيء موجود يتمّ بالعقل، أي أن كلا طرفي المعادلة عاقل، فالوجود عاقل لنفسه، والإنسان عاقل لنفسه ولهذا الوجود بإدراكه، وهناك ما فوق المعادلة وهو الوجود المطلق، العقل الكلّي العاقل جلَّ شأنه...

فالإدراك هو السر، لأننا لو قلنا العقل، فكل الوجود عقل منطوٍ تحت عقلٍ أعظم وأدوم...

والإدراك = الوعي = الفكر = الحركة = الحياة... وأصل الإدراك ومنبته العقل...

إذاً ما دام وُجد العقل وُجدت الحياة... ومن هنا استنتج ديكارت هذا القانون... أنا أفكر إذن أنا موجود... والفكر وليد العقل، والحركة وليدة العقل...

فالمشكلة بل الكارثة تقع لك أيها الإنسان العاقل عند إلغائك إياه أو تعطيله، فبذلك تخرج من النظام الكوني العاقل المتعاون، وتعصى على حقيقتك ذاتُك العاقلة، وتعصي ربَّك لأنك على مدار حياتك في صلاةٍ مع ربّك، والعقل هو لبّ هذه الصلاة، لأنه يجب عليك إدراك لمن تصلّي وكيف تَصلّي... فإن عطّلته بإرادتك خرجت بطواعيتك من هذا المحراب وشرف هذه المنزلة...

فما يميّزك عن باقي الكائنات أنك عقلٌ يدرك المعقولات من حوله.

وباء القراءة

نعم ولِمَ لا... ذلك أن الوباء قد يكون إيجابياً عندما نأخذ منه زاوية مهمّة هي سرعة الانتشار العنيف... والأهم "العدوى"... ومن الممكن أن نتعلّم من الفيروس الشيء الكثير، فالحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ الناس بها... نتعلّم منه كيف يخترق الجهاز المناعي ثم يغرس مادّته في الداخل كي تتولّد من تلقاء نفسها، حتى تخرج على شكل معاونين ومساندين له... نتعلّم منه كيف يجعل عميله "المُصاب" هو نفسه المسوِّق النشط له... وهذا ليس ضرباً من الفلسفة الغربية، بل هناك علم قائم يُدعى التسويق الفيروسي...

المهم، عند المقارنة الإيجابية مع القراءة، أولاً علينا أن نعلم نقطة الضعف أو الثغرة لدى الشخص الذي نريد منه أن يقرأ ويُحبّ القراءة، كي تكون لنا مدخلاً نمرّر منه فكرتنا... وفي نفس الوقت علينا أن نعرف جهازه المناعي ضد الفكرة. مثلاً: يكون لديه "أجسام الملل" أو "كريات (ما عندي وقت) البيضاء" أو غيرها... وللتطبيق العملي نفرض أننا نعرف شخصاً يعشق أن يكون ذا محصول أكبر من المعرفة، من هنا نستغلّ الفرصة ونخبره فوراً بفكرة القراءة أو نعزّزها لديه ونجعله يؤمن أنها تعطيه، ليس سيلاً من المعرفة، وإنما كون ليس له بداية ولا نهاية... ثم هنا النقطة الحاسمة... كيف أجعله مسوِّقاً لنفس الفكرة...

الفرق بين القراءة وبين أي فعل آخر، إنها لا تحتاج عند غرسها في قلب الآخرين أن تخبرهم أو تبتكرَ طريقة لجعلهم ينشرون لك ما تريد... بل هي تعمل بصورة آلية ذاتية تماماً كالفيروس... ذلك أن "المصاب" إذا أحبها سوف يجعل من الذين حوله ومن يُحِب... يقرأ (من باب أحب لأخيك ما تحب لنفسك)... وسوف تكون بيئته ومَن حوله شاهدين على سحر الكتاب وتغييره لصديقهم... والاعتياد على منظر الكتاب ووجوده بينهم، هذا شيء آخر مهمّ... وهكذا من شخص إلى شخص... ومن بيت إلى بيت... ومن مجتمع إلكتروني إلى آخر... حتى نتمنّى أن نرى في نشرة الأخبار من يقول في العاجل: لقد انتشر في المملكة العربية السعودية وباء جديد... يسمى "وباء القراءة"...

عبقرية الإرهاب

قد أكون أحد هؤلاء الأفراد الذين يشهدون كل يوم تلك التناقضات الغريبة في الخطاب السياسي وحراكه بشأن الإرهاب... وبعض الأمور التي تتم وفقه بطريقة غير منطقية... فعندما يفتَّش الناس عراة أو يعذبون في السجون أو يُقتل مليون إنسان بسبب أهداف اقتصادية، لا يُعتبر إرهاباً... وعندما يدافع الناس عن بلدهم وعرضهم ضد الغازي، أو عندما تريد فكَّ الحصار عن بلدك لتجد لقمة العيش... هذا كلّه يُعتبر إرهاباً... شيء غريب... هكذا بدأت أتأمّل هذه المسرحية حتى مللت منها... وبحثت عن حقيقة ما يسمى "إرهاب" حتى وجدت بين يديَّ كتاباً للدكتور جلال أمين اسمه "خرافة التقدم والتخلف" يشرح فيه هذه الظاهرة ويقول:

"لا بد أن الفكرة بدأت باكتشاف أن هناك حاجة ماسة لتخويف الناس. كان هذا الاكتشاف وحده اكتشافاً عبقرياً، إذ ليس من السهل أن نتبيّن لأول وهلة الفوائد العظيمة التي يمكن تحقيقها من وراء ذلك. الخوف يوحّد بين الناس، ويلهيهم عن المعارضة، ويجعلهم أسهل قياداً، ويُضعف من قدرتهم على استيعاب البديهيات، أو إدراك التناقض بين الأقوال والشعارات، ويجعلهم أكثر استعداداً لقبول الأوامر والتنازل عن الكثير عن حرياتهم.

إن إدراك الزعماء السياسيين للفوائد التي يمكن أن يجنوها من تخويف رعاياهم قديم الطبع ولا بدّ أنه استُخدم من قديم الزمان من جانب الزعماء الديكتاتوريين والديمقراطيين على السواء، وزاد استخدامه في القرن العشرين في الاتحاد السوفييتي، وعلى الأخص في عهد ستالين، وفي ألمانيا وإيطاليا على يد هتلر وموسوليني، وفي بريطانيا على يد تشرشل، وفي الولايات المتحدة على يد روزفلت، فخوَّف ستالين شعبه من الرأسمالية، وخوَّف تشرشل وروزفلت شعبيهما من الشيوعية، وخوَّف هتلر وموسوليني شعبيهما من الشيوعية والرأسمالية على السواء. بعد الحرب العالمية الثانية، لفترة كادت تقرب من نصف قرن خلال ما سُمّي بالحرب الباردة ولكن بسقوط النظام الشيوعي في دولة بعد أخرى منذ أواخر الثمانينات، كان لا بد من العثور على مصدر جديد لتخويف الناس، بل لا بد أن البحث عن هذا المصدر الجديد قد بدأ حتى قبل سقوط الشيوعية، إذ إن الأمر يحتاج إلى وقت، وقد يفقد مصداقيته ويصبح مفضوحاً إذا استُبدل سبب التخويف بين يوم وليلة. كان لابد من بدء العمل على تنمية مصدر جديد لتخويف الناس منذ بدأ عصر الوفاق بين المعسكرين في أواخر الستينات. وقد أُخذ الترويج لهذا المصدر الجديد شيئاً فشيئاً خلال السبعينات والثمانينات، وأُعلن رسمياً أنه مصدر الخوف الرئيس خلال التسعينات، ولم يبدأ القرن الواحد والعشرون حتى أصبح هو المصدر الرئيس للخوف لدى الجميع، والمحوَر الجديد للسياسة الخارجية والداخلية على السواء، وهذا هو الإرهاب...".

ويقول مبيناً سرّ النجاح في اختيار هذا الاسم (الإرهاب):

"لا بد أن نلاحظ كم كان اختيار الاسم موفقاً... فكلمة الإرهاب بعكس كلمة الشيوعية مثلاً أو الرأسمالية أو النازية أو الفاشية، لا تشير إلى مصدر الخطر، ولا تصف طبيعته أو مكوّناته، بل تشير إلى نتيجته، وهي التخويف...

"الشيوعية مخيفة" و"الإرهاب مخيف"... فالعبارة الأولى عبارة ذات معنى، ولها مبتدأ وخبر يصف مبتداها، أما العبارة الثانية فلا تقول شيئاً على الإطلاق، إذ إن الخبر "مخيف" لا يضيف شيئاً إلى المبتدأ "الإرهاب"، فكلاها لهما معنى واحد، وكأنك تقول الشيء مخيف مخيف.

كذلك فإنك إذ تشير إلى شخص بأنه "إرهابي" لا تخبرنا بشيء عن سبب الخوف منه أو عقيدته أو مصدر أفكاره أو عن صفاته الشخصية أو نوع الأعمال التي يقوم بها، إنك تشير فقط إلى أثر هذه الأعمال، وهو إثارة الخوف والرعب.

أقول إن اختيار هذا الاسم الجديد (الإرهاب) للتخويف كان "موفَّقاً" لهذا السبب بالضبط... أي عموميته وخلوّه من المضمون، ومن ثم إمكانية استعماله في ظروف متباينة جداً، ولوصف حالات لا يجمع بينها شيء إلا الرغبة في إثارة الخوف منها، وكأن الفرق بين هذا الاختراع الجديد (الإرهاب) والمصادر القديمة لإثارة الرعب (الشيوعية، الفاشية، النازية...) هو كالفرق بين التليفون المحمول، يمكن استخدامه للوصول إلى أي شخص في أي مكان، وتغيير طريقة استخدامه لمواجهة أي "احتياجات جديدة"..." (ص 125 – 127).

هكذا يكشف لنا الدكتور جلال أمين كذبة بعض الادّعاءات السياسية بهدف الإرهاب للوصول إلى أهداف خاصة... فعلينا الوعي بذلك، وهذه من أهمّ الأحداث التي تجري على الساحة... ولا ننسى مدرسة التكرار التي تخزن في العقل الباطن هذا الخوف من الدعايات والمقولات... لكننا لا ننفي أن هناك بعض المتطرفين حقيقةً الذين يعيثون في الأرض فساداً... فهذه مسألة... والإرهاب الذي يروَّج له بطريقة عنيفة ولأهداف خاصة، وبالذات بعد أحداث 11 سبتمبر (حدث 11 سبتمبر منحنى تاريخي تغيّر بعده العالم) مسألة أخرى... والفارق بينهما المعرفة والوعي.

فن الزحلقة

لم أكن الأول الذي يكتب تحت هذا العنوان، بل إن الأديب توفيق الحكيم هو الذي سبقني في كتابه "يقظة الفكر"... وكتب تحت العنوان وحكى واقعاً مريراً تتمثل فيه هذه الفنون الزحلقية... وإنه لغريب أن هذا الفن موجودٌ منذ ذلك التاريخ... وليس بجديد، على أننا الآن في مرحلة الاحتراف فيه، بل في مرحلة الأستذة، ولنا أكاديميات ومؤسسات تعلِّم وتدرِّس هذا الشيء في بلدنا. ودعونا نرَ قصته ونستشفّ منها واقعنا ومدى التشابه في الفعل، وإن اختلفت المصطلحات: "وليس المقصود هنا فن "الزحلقة" فوق الجليد في المشاتي الجبلية، بل فن "زحلقة" المسؤولية والاختصاص في أداتنا الحكومية. وهو في الحق فن قد اكتسبناه بكثرة الممارسة، وحذقناه بطول المران... ولعلّ من سبق له اشتغال بالقضاء، خصوصاً في الأرياف، قد مرّت به، على الأقل مرة، حادثة "الجثة" التائهة... جثة القتيل الملقاة في النهر، تُستكشف عند المركز، فيتبرّم الرجال من الحفظ بها وبعواقب انتشالها وما يؤدي إليه أمرها من التحقيق والتفتيش والتشريح، وكدّ وتعب وجري وراء الفاعل، وتحمّل النتائج وتعرّض لتبعات. فما لهم ووجع الدماغ...

وفي الإمكان التعامي عن الجثة بلباقة، أو تخليصها من أعشاب الشاطئ برشاقة، ودفعها إلى التيار، هدية كريمة إلى مركز آخر، ويحملها التيار إلى المركز الآخر فيصنع بها ما صنع الأول متحاشياً لمسها، متهرباً من استقبالها، متبرعاً بها للمركز التالي... وتسبح على متن التيار إلى المركز التالي، فيتنكّر لها هو أيضاً ويتأفّف ويتضجّر ولا يقرّ له حال ولا يهدأ له بال حتى "يزحلقها" إلى مَن بعده. وهكذا دواليك... إلى أن يشاء الله، ويرسي هذه الجثة على بر السلامة، وبر السلامة هنا هو الجهة التي لا تستطيع لهذه الجثة (زحلقة) ولا منها هروباً ولا فكاكاً ولا خلاصاً ولا فراراً. يلبسها "الاختصاص" كأنه "خازوق" تقبله مرغمة مذعنة وأمرها إلى الله!... أما الوقت الذي ذهب هباء في هذه التصرفات، وأثر الجريمة الذي ضاع، والمصلحة العامة التي فاتت بسبب هذه الإجراءات... فمن يدفع ثمنها، وعلى من يقع وزرها وقد طمست معالم المسؤولية بين هذه المراكز المختلفة؟! هنا براعة فن "الزحلقة"!... وليس هذا الفن مقصوراً على الريف دون المدن، ولا على زمن دون زمن، ولا على مصلحة دون مصلحة، فالتفوّق فيه بحمد الله مشاع بين الجميع" (ص 126).

هكذا يشرح لنا الحكيم بطريقة أدبية ما يحدث لنا في بعض المؤسسات الحكومية أو المُنشآت الخاصة... من حيث المعاملات والطروحات الجديدة قديماً وحديثاً... ومشكلة بحيرة المسك... ومشكلة البطالة، ومشكلة قيادة المرأة للسيارة، من القضايا العامة إلى القضايا الخاصة، من معاملات في الدوائر الحكومية التي تمارس معك فن الزحلقة...

أعتقد أنه علينا أن ننشر الوعي بهذا الفن... ليس للاقتداء به! بل لنقده والقضاء عليه...

فهناك فنون أهمّ وأفضل علينا إتقانها...

غزاليات

أنت الشعلة

عندما يمرّ الزمن وتنقضي الثواني وتليها الدقائق وبعدها الساعات وهكذا دواليك، حتى تحسّ بانقضاء مسافة بين الرقمين، تتراكم أمورٌ كثيرة منها الأرقام ومنها الأفكار ومنها الخردوات والعوائق. وكل هذه التراكمات إن لم تخفّف من حدتها وترتّب أوراقها فسوف تجعلك تعوم في دوامة من التشوّش حتى تغرقك إلى أعماق التشتّت المظلم. إذاً نفسك لا تظلمها، فهي أيضاً تحتاج إلى ترتيب بعد احتكاكها في صنوف الشهوات وظروف الأوقات وكهوف الطاقات، فنفسك كما شبّهها شيخي محمد الغزالي (رحمه الله) هي مثل الغرفة التي بعد انقضاء مدة من الزمن قد يتراكم فيها الغبار وتتبعثر فيها أوراق صغار، فتقوم أنت بدورك بعد ذلك بتنظيفها وترتيبها، ألا تحتاج نفسك إلى مثل هذا الترتيب والتنظيف؟ بلى، لكن المشكلة التي تواجه أكثر الناس أنهم يعلّقون تلك اللحظة التي أسميها "لحظة تجدّد الحياة" بأقدار مجهولة أو مواسم معينة. فيظن المرء أن الطاقة الخارجية التي ليست منه هي التي تشعل فتيل التجدّد، وهذا كما قال شيخي في كتابه "جدِّد حياتك": "وهذا وهم، فإن تجدد الحياة ينبع قبل كل شيء من داخل النفس". إن الطاقة والشعلة التي تشعل الفتيل هي أنت، وأنت الذي تبدأ وتنطلق، ثم بعد ذلك تساعدك الطاقة الخارجية، وليس العكس. وهذا أيضاً ما قاله شيخي في كتابه. قال: "لا مكان لتريُّث، إن الزمن قد يفد بعون يشدّ به أعصاب السائرين في طريق الحق، أما أن يهب المقعد طاقة على الخطو أو الجري فذلك مستحيل". فبعد أن تقدم على التجدّد وتبدأ بذلك لا تنسَ أن الله جل جلاله يحفز تلك الطاقة ويريد منها الاستمرار، ويريدك أن تنسى كل الماضي من فرار واغترار، فهو من قال عز وجل في آية أعتبرها أنا مصل التجدّد قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (الزمر: 53). فلا تجعل الكنود القديم يعيقك عن توبةٍ صادقة، فهذا حمقٌ رجيم إذا علمت أن ربك غفورٌ رحيم.

نكهة الغزالي

أن تضحك وأنت تُشتَم فهذا فن، وأن تطلب المزيد من الشتائم كي تستوعب، فهذا منظور لا تجده إلا عند أديب الدعوة أو عبقري الدعوة الشيخ محمد الغزالي...!!

وكنت أتساءل عن سر نوبات هذا الضحك الذي ينتابني عند قراءتي لكتاباته ذات الطابع "المبكي الضاحك" أو قل "المضحك الباكي"!!... فاكتشفت أنه يصوّر الحقيقة المؤلمة بطريقة مضحكة وحادّة. فعندما أقرأ التصوير المكتوب أضحك، وعندما أفهم الحقيقة المرجوة أبكي، وأظن أنه عندما يكتب عن قضية ما تظهر له تصوّرات في نفسه فيحوّل تلك الصور المضحكة عن تلك القضية إلى كلام يصف تلك الصور مهما تكن، فهو صادق بمعنى أنه يكتب ما يحسّ به ويتصوّره بدون تكلّف.

وأرى أنه عندما يُشتم الساكن فهو يراد به التحرّك لا أكثر، فنستطيع أن نسمّي أسلوبه هذا ب. "الصفع بالحب"، والشتم الإيجابي نوعان: شتم بلطف، ولطف بشتم. وكما قلت هو أسلوب "الصفع بالحب"، وهو أحسن من "الحب بالصفع" كما أظن!!

خلطة الغزالي السرية

كنت دائماً أسأل والدتي بكل تَلَهُّف ما الذي يجعل من معكرونة "البشمل" خاصتك رائعة ولذيذة، فكانت دائماً تجيبني قائلة:

تلك خلطتي السرّية يا ولدي...

فيا ترى ما هي الخلطة السرية للإنسان المسلم الصحيح في نظر الغزالي...!! الذي خاض تجربة امتحان كبيرة من خلال كتابه "الجانب العاطفي من الإسلام" وهو يحاول لفت الانتباه إلى كيفية تنوُّر الذهن والقلب معاً؟ حتى إنه يقول "دين الإنسان ينقص بقدر ما يصحب عاطفته الحارة من نقص علمي أو عجز فكري".

من المعلوم أن أي إنسان لا يخلو من وجود شيئين بداخله، ألا وهما العاطفة والعقل (التفكر). والمشكلة ليست في نقاش وجودهما أم لا، فكل البشرية مُسَلِّمة لهذه الوجودية ومؤمنة بها، لكن المشكلة هي في كيفية استخدامهما في الوقت الصحيح والكمية الصحيحة. لقد علمنا ما حدث في طيات الماضي من تصرفات سخيفة من قبل بعض المسلمين بسبب استخدام العاطفة الفقيرة إلى التعَقُّل، وهذا لا يعني إعدام العاطفة، لأن العاطفة هي التي تميّزنا عن باقي الجمادات، وهي نكهة الحياة، وأنا أشبّهها بالملح في البشمل. وللمعلومية، الفرق بين العاطفة والعاصفة سلسلة أو جسر ممتدّ إلى الأعلى يصل ويربط العاطفة بالعقل، فإذا انحلّت السلسلة أو تحطّم الجسر تحوّلت العاطفة إلى عاصفة، وهي ليست مضرّة للشخص بما يصيبه من تشتّت وضياع فقط، إنما هي تضرّ من حوله كالعاصفة تماماً.

فنستطيع أن نقول إن العاطفة والتعقل ليسا عنصرين منفصلين أحدهما عن الآخر، إنما هما مركّبٌ واحد وهذه هي خلطة الغزالي السرية المنشودة: "فعاطفةٌ متعقِّلة وتعقّلٌ بعاطفة".

سر الغزالي

عجبت وأنا أقرأ في كتب الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، وهذه حالي دائماً مع كتبه لعدة أمور حدّثتكم عن بعضها في مقالتي "نكهة الغزالي"، وأخرى في مقالة "خلطة الغزالي"، واليوم سوف أحدّثكم عن عنصرٍ مهمّ لدى الشيخ، بل من أهم عناصره، ألا وهو كشف الزيف.

الغريب أنه لا يخلو كتاب من كتبه إلا ويكشف لنا بعض الأمور الزائفة في حياتنا أو بعض الشخصيات، فهو مثل النور الساطع اللامع الذي لا يستطيع الظلام الوقوف أمامه إلا تقطع وانكشفت أسراره. فعندما كنت أقرأ في كتاب الشيخ "تأمّلات في الدين والحياة" عرّفني إلى مجموعة شخصيات

سلبية وسيئة، والهدف من كشفها تجنّبها وعدم الانخداع بها، والآن سوف أذكر لكم مجموعة الخبث الفاخرة:

الصنف الأول: المعوِّقون، وهم كما وصفهم شيخي "الذين يعترضون ببلادتهم كل حركة، ويتشاؤمهم كل رجاء".

الصنف الثاني: المهرجون، وهم قوم يتفقون مع زملائهم في خراب القلب من حبّ الخير وتمنّي نجاحه، ولكن الفرق أنهم متوارون بين العامّة، فعندما تظهر الغنائم هم أول الناس، وعندم تبدأ نذر الكفاح هم أول الموَلّين.

الصنف الثالث: الثعالبة، وهم الذين يحقِّرون الأشياء التي لا يستطيعون إدراكها، فهؤلاء لا يظهر عمل عظيم إلا رأيتهم ينظرون له ببرود واستخفاف.

الصنف الرابع: الحطيئية، وقال عنهم الشيخ "وأظن أن طينتهم من النوع الكلبي الذي إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث، وعلامتهم أنهم يضخّمون التوافه، ويتاجرون بالخلافات، ويلتمسون للأبرياء العيوب".

تخيّلوا معي هذا، لقد عرفنا في كتاب واحد فقط هذه المجموعة من صنوف الناس التي أراد من ذكرها أن نتّقي شرّها في حياتنا، فكيف بباقي الكتب التي أغرقت المكتبات من كثرتها، لقد ركّب شيخي لكل منا "فلتراً" ينقّي ويصفّي به الناس من الشوائب في حياته، فرحمك الله يا شيخي على هذه الخدمة.

والأعجب أنه لا يذكر فقط وصفهم بل علاماتهم لكي نستدلّ عليهم ونميّزهم في العامة، فهذا سرٌّ وعنصرٌ يتميّز به شيخي، فيا ربِّ اكتب لنا هذه البصيرة.

ولادة جديدة

قسم الله الأيام قسمة العدل والاعتدال، ووزّعها في حقائب الشهور المرتّبة في خزانة السنة، لكن لا يمكن أن ننكر تفارق الدلال بينها والحب والجمال، فتميّزت بذلك الحال بعض الشهور إلا شهر غار التميّز منه، شهر كالزهرة بين الحشائش، كالشمس في كبد السماء، لماذا هذا التميّز كلّه والدلال جلّه؟ لأن فيه اصطبغت بياض لوحة الدنيا بالألوان، ونور ظلام الجهل بالمعرفة الموحدة، فيه يومٌ تحتفل به الوحوش والأشجار والسماء والأرض، إنه يوم التغيّر العالمي، ومقتل الأنا الخبيثة، يوم المولد الشريف، يوم ولادة رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلّم.

ومن الفطرة السليمة بعد معرفة هالات هذا اليوم أن تحتفل به، لكن يجب علينا معرفة أن الاحتفال بهذا اليوم غير باقي الأيام كما قال شيخي محمد الغزالي: "الاحتفال بميلاد محمد صلى الله عليه وسلّم ليس كالاحتفال بميلاد أي إنسان آخر" في كتابه "ركائز الإيمان". العجيب أننا سمعنا من يقول إن الإحتفال بهذا اليوم من البدع ولا يجوز، وأنا لا أتكلم هنا في حيّز ماذا يحدث خلال هذا

اليوم، ولكني أتكلّم عن المبدأ والأساس، وهناك كما نعلم العديد من الاحتفالات التي أقرّها المسلمون اليوم ويحتفلون بها مثل اليوم الوطني، أسبوع الشجرة، وأسبوع المرور أو يوم المرور، وغيرها....

أي عقل شظف يجعلنا نُحرم من فوائد هذا اليوم من تذكّر الحبيب وذكره وسيرته، كما قال شيخي: "من أجل ذلك نحن نرى أن الاحتفال بمولد محمد صلى الله عليه وسلم ليس إلا فرصة لتوكيد الولاء له، والاحترام لتراثه، والاستمساك بتعاليمه، والرغبة العميقة في نفع العالم بها". وأظن أنه من العيب واللؤم بعد الأيادي التي أسداها والنور الذي أنار به كل الدنيا أن لا نذكر هذا اليوم بيننا وحولنا بأنه يوم ولادة الدنيا الجديدة.

فأثنوا عليه وأكثروا من الصلاة والسلام في هذا اليوم. وأختم بمقولة الشيخ "والثناء على محمد صلى الله عليه وسلّم ينبجس من ينبوع الثناء على الله، فهو تقرير حقيقة، وشكرٌ جميل".

ستّي وستُّ الحياة

اعتدنا كل جمعة على أن يحضّر أبـي الغداء... وهو حدث خطير، إذ إن أبـي يُحسب من عداد الطباخين الماهرين القلّة الذين يوجدون في عائلتي... لكن ما تميّزت به جمعتنا هذه المرة هو قدوم ستّي الجبّارة وعمّي الحنون...

دعوني أحدثكم قليلاً عن ستّي "حياة"... تتميّز ستي بعدة عوامل: 1 – القلب الأبيض... 2 – الجرأة الغريبة... 3 – حب العنف... 4 – الاهتمام بالدعايات... 5 – القوة النفسية والجسدية (حفظها الله)... وبعد التأمّل فيها قد نجدها عوامل تشترك فيها كثير من جداتنا... على كلٍّ كلما رأتني ستي انهالت علي بالضرب المبرّح... وعلى فكرة تتميّز ضرباتها بالاستراتيجية المحترفة، بحيث إنها تبدأ بقرص الحلمتين وشدّ الأذنين، وتنتهي بشدّ الشعر وضرب الركبة... والسبب الذي يحملها على ذلك هو انقطاعي عنها وعدم سؤالي... ودائماً ما تبدأ بهذا العنف وتنتهي على حقيقتها عندما تحضنني بعد ذلك وتقول لي: أنا أحبك (يا مفعوص)... وتقول: ليش ما تمرّ عليّ أو تسأل عني ولو بالجوال... ودائماً ما أتأثر من هذا العتب المميّز... إذ إنني أعلم جيداً أنها تحبني... هذه اللحظات من ستّي والتي لا تحدث إلا معها هي التي تعطيني طعماً في حياتي... رغم بعض الكدمات التي أجدها منها... ولا أستطيع العيش من دونها حفظها الله... اسمها كما قلت هو... حياة... وتحب أن ندلّعها حوتة... مع التعقيب بأن الحوت اللي ما ياكلوا يموت... وصدقت... ستي هي الحياة التي تعطيني معنى الجذور... أي أينما ذهبت فإني أحمل ثمار جذور قد مدّتني بالحياة من قبل... بعدما أنهت الجزء الخاص بالضرب... بدأت تُفعّل جزءها الخاص بالأمثال اللاسعة التي من باب الكلام ليكي يا جارة... فانهالت عليّ بالأمثال، وطبعاً نسيت أكثرها إلا واحداً... علق في رأسي أو في "فلتري" الذي لا يمرّر أي قديم من غير نقد... ذلك أني أكره قداسة القديم التي يكتسبها من قدمه... فقالت لي: "اللي ما يُعدّك مكسب، ما تُعدّو رأس مال"... وتقصد بذلك أن الذي لم يجعلك في فئة المكاسب في هذه الحياة، أي أن تكون معرفته أو صداقته إضافة إلى حياتك... فلا تجعله ملجأ أو أحد الأشياء الثمينة التي تمدّك بالحياة والعون في هذه الدنيا...

صدقت عندما قصدت به هذه الأشياء... ولكن المثل له بعد آخر تعاقدي... وهو ما حذّر منه الدكتور عبدالوهاب المسيري... في أن هذا العصر تزحف مجتمعاته نحو ما يسمّى بالمجتمع التعاقدي وليس التراحمي... أي أن تصبح الحياة والعلاقات مبنية على مبدأ السوق... وهي لمحة وصبغة تكسبها المجتمعات في كل أمورها كما هو موضح في لفظ المثل... وهكذا تصبح العلاقات مصلحجية أي نفعية... ومبدأ المنفعة يصبح هو السائد... أي إن لم تفدني وتنفعني فأنت عثرة في طريقي... وتحتاج إلى إعادة إنتاج أو تكرير لتصبح ذا فائدة أكبر...

ولكن ليس هذا هو المبدأ القرآني ولا الإنساني... العلاقة التراحمية هي المطلوبة، والتي لا تستند إلى الصورةِ الفردية النرجسية، أي "ما ينفعني"... ولكن إلى الصورةِ الكلّية الإنسانية وإلى الآخر بعين رحيمة... وقد يأتي في طريقي ما قد يكون ضرراً لي، لكن وكما رأينا في أهالي أسطول الحرية الأبطال، أن الهدف والغاية الإنسانية تسمو على ذلك... الرحمة هي الأساس... هكذا قال الله عز وجل عن هدف رسالة هذا الزمان وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء: 107)... ومن لا يَرحم لا يُرحم... والرحمة درجات وقمّتها العفو... أي التسامح من غير حساب...

هذا ما خرجتُ به من تلك اللحظة... من خواطر أردت مشاركتكم إياها... ولن أنسى مبتدأ المقال... بأن ستّي هي التي كانت السبب في هذه الاهتزازات الواعية... ولن أنسى بأن خبر المقال أيضاً... هو أن لا تنسوا زيارة أجدادكم، فإنهم رحمةٌ لكم في هذه الدنيا... ولن تعرفوا قدر محبّتهم لكم إلا بعد أن تُضربوا (كما في حالتي)... أو تُسمَعوا بعض الكلمات الحنونة التي تحرّك عندكم تلك الجينات التي انتقلت من روحهم إليكم... هذه ستّي... حياة... وأظن أن كلّ ستٍّ وجدّة هي حياة كل أسرة...

عبقرية القراءة

يتميّز الإنسان بتعدّدية الأبعاد التي تكوّن كيانه الكلّي... فلديه البعد العقلي والنفسي والجسدي والروحي... وعندما نتعامل مع سلوكيات إنسانية فمن الخطأ أن نأخذ بُعداً واحداً منها ونبتره عن بقية الأبعاد في منطقة أحادية الاتجاه... والقراءة ليست ببعيدة عن هذا المفهوم، فعادةً ما نتعامل مع القراءة سواء في فعلها أو في الدعوة إليها وفق البعد العقلي فقط... مع أنها تمتزج مع كل هذه الأبعاد وتتأثّر بها... ولذلك علينا التركيز على العلاقة الإنسانية مع الكتاب (الكتاب الإنساني) وليس مع العلاقة الشيئية معه (الكتاب الشيء)... وعندما نتأمّل تجربة القراءة فإننا نجد أن هذه الأبعاد تتحرك بالفعل مداً وجزراً معها... فهناك التفكير أو التذكّر أو الفهم في البعد العقلي، وهناك الإحساس والشعور والحب والكره في البعد النفسي، وهناك الحواس الخمس وعلامات الوجه الشعورية ووضعية الجسد في البعد الجسدي، وأخيراً هناك الإيمان والاقتباس من أرواح العظماء في البعد الروحي... ومن هنا تتّضح شمولية القراءة المطلوبة... ومن هنا أيضاً تتّضح كيفية فهم بعض خوارق القراءة عند بعض العباقرة القرّاء، وبعض العلاقات الغريبة الحنونة مع الكتاب، إذ أولاً يستحيل أن تحدث مثل هذه الأمور فوق الإنسانية فقط بالبعد العقلي (أي نقرأ لنشغّل عقلنا فقط)... وثانياً يستحيل من قِبل تلك العلاقة الطفيلية بين الكتاب والقارئ... أي أن يستفيد الإنسان فقط من الكتاب، وقد يؤذيه أحياناً... بل إن طبيعة العلاقة التي تفسر هذه المحبة القوية هي العلاقة التكافلية بين الكتاب والقارئ، إذ يعرف كلاهما أنه لا يستطيع الاستغناء عن الآخر، وأن قوّتهما في تعاونهما معاً... وهنا في منطقة التعامل فإنهما يتعاملان وفق علاقة تراحمية، وليست علاقة تعاقدية أي مصلحجية (مصلحة نفعية)...

إذ نحن نعرف أن "اقرأ" هو أمر عقائدي وعبادي... وأن الله ذكر الكتاب والقراءة والقلم في كتابه العزيز... ومن هنا نتعامل مع الكتاب على أنه "كائن حيّ" مخلوق من خلق الله... ويظهر هذا السلوك عند سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، عندما يتعامل مع الجمادات فيسمّيها بأسماء مثل: ذو الفقار، والغراء. فكيف بالكتاب الذي هو يهبك الحياة... (الإحياء)...

ومن هنا نعلم الفرق الذي تميّزه القراءة، والمفتاح الذي تقدّمه، للتحوّل بين "السوبر – إنسانية" وبين "السب – إنسانية"...

وبعد هذا المشوار الذي أخرجت فيه ما في قلبي من عواطف وما في عقلي من خواطر، يجب ألا أن نربّي أولادنا على حب الكتاب وفق هذه المعايير... بل وفق هذا المفهوم "أن كتابي هو رفيقي الإنساني"... ونستطيع إعادة تعريف القراءة في الكتب للجميع بأنها: تجربة عميقة ذات أبعاد إنسانية بين إنسان وكتاب، يسعى كلاهما إلى التكامل مع الآخر"...

في حضرة الأنثى

أنا الطبيعة... أنا الأم الكونية...

سيدةُ كل العناصر... عُبدتُ بطرقٍ شتى... وأُطلقت عليّ أسماءٌ كثيرة...

لأن جميع أهل الأرض يقدّسونني...

في البدء كانت إيزيس...

أقدم القدماء...

الربّة التي نشأ كل شيء منها...

السيدة الكبرى... العظيمة أعمالها كلّها...

الساحرة...

الحكيمة...

الأعظم من كل الآلهة...

(ترنيمة مصرية، الدولة الوسطى)

كانت إيزيس إلهاً يُعبد في الحضارة الفرعونية، وكانت تمثل الأنثى وسيادتها... وهكذا في كل الحضارات القديمة التي سبقت الحضارة اليونانية، احتلت الأنثى دور القداسة والتقدير، بل كانت وسيلة وغاية... وسيلة للسيادة وغاية لملكوت الآلهة...

لا يهمّنا في هذه الأطروحة الإيمانيات التي تعاملت معها الحضارات أو من أيديولوجيات أو أفكار لاهوتية، حيث الموضوع هنا ليس فيه ترابط واضح أو تسلسل منطقي، بل هي طاولة مفتوحة تحتوي على كل الأدوات التي تمكّنك من صنع محراب وعي، أو معوَل هدم، أو سلّم معرفة، لكن هناك شرطاً عليك دخول غرفة الطاولة بدون تعفّنات ورواسب اجتماعية قد خُزّنت عمداً في كيانك أو في معرفتك... والغاية الأساسية هي رحلة مع تجليات الأنثى على صفحة الكون وتاريخه...

قديماً كان رمز الأفعى هو الذي يدلّ على الآلهة الأنثوية في كل الحضارات التي ملكتها

أنثى... وبين الأفعى والأنثى تاريخ طويل وتشابه واسع.

إن الأفاعي السامّة لا تمثل إلا 10% من كل الأنواع... ومع ذلك لا تهاجم الأفعى إلا إذا هاجمها أحد أو اعتدى عليها، ومع ذلك هي تحذِّر أولاً... ألا ترى أنها تطلق أصواتاً وحركات تنبّه أنها في حالة خطر وتريد الهجوم؟...

ويتداخل جمالها وجلالها في نوع "الكوبرا" التي لها وقفة مهيبة شامخة وتلك النظرة القوية ضد عدوها... وأثناء ذلك تتمايل وتتراقص على أنغام الناي الرقراقة... هي لا تسمع، ولكنها تقرأ الموسيقى بطبعها في هيئة الأجسام...

الأفعى دوماً تعرف طريقها... تنسرب في مساراتها على كل الأسطح، ولا يؤثر فيها... الزحف مشيها... قبل أن تختار الجيوش هذا المسمّى وتقول: زحف الجيش... وتقول: الانسحاب، وهي حركة الأفعى، قبل أن تكون انسحاب الجيوش...

"لا يصح أن نقول والد، فإنه لا يستحق هذه القدسية فهو لم يلد"...

... في لحظة اقتران ألم المخاض بنشوة الخلق والإيجاد... وتمتزج لحظتها معاناة انبثاق الحياة من الباطن... بمعاناة انبثاق الروح من البدن... لحظتها تتوحد الأنثى مع الأفعى التي تنبثق من جلدها القديم لتتجدّد... حيّة عصية على الأفهام...

ولنذهب إلى منعطف اللغة – أي العربية – ونرى مرادفات الأفعى فيها...

أول مرادف معروف هو "الحيّة"... في وعي العرب اللغوي اشتُقّ اسم الحية من الحياة، ومنها سمّيت أم البشر حسب اعتقادهم بـ "حواء"... و"الحيا" في اللغة بمعنى: الخصب والمطر... والمطر ماءٌ، والخصب هو الأرض التي سُقيت بالماء... الماء المخصِب، والأرض المخصَّب... كلاهما حيّ... كلاهما حياة... كلاهما حواء... كلاهما حيّة...

الحيّة عكس الميتة... الحية ضد الفناء... الحية مرادفة للخلود والانبعاث وتجدّد البقاء...

وقد شُوّه هذا المعنى عن عين الحكمة بحيث ترى في "لسان العرب" تحت مادة "أنث" ما نصّه: الأنثى خلاف الذكر في كل شيء، والجمع إناث وأُنَث كحمار وحُمر!!.

وقد وُجد في التاريخ من عرف هذه المعاني وأكثر، لكن بعضهم كتم سرّه، وبعضهم أشار، وبعضهم تكلّم. ومنهم سيف بن ذي يزن... الذي أحاط بسيرته الحضور الأنثوي الطاغي فرسم الحيّة على صفحة سيفه البتار... ومنهم شيخ الصوفية الأكبر العارف بالله الشيخ "محي الدين ابن عربي" حينما حكى في كتبه عن الحية المحدقة بجبل قاف... وقال: "المكان الذي لا يؤنّث، لا يعوّل عليه"...

"ما ذكّر المذكر هو الذي أنّث المؤنث"...

هناك اعتقاد خطير بأن العرب في زمن ما يسمى الجاهلية كان لديهم عادة وهي "وأد البنات"... وهذا يقال إنه موجود في القرآن، ولكنه إشارة مبهمة تقول: وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (التكوير: 8 – 9). هو حتى لم يقل: "وإذا الموءودة سَألت"... أي نفى عنها الفعل بالكلّية...

ولم يصل إلينا من زمن ما قبل القرآن خبر موثوق يُؤكّد أن العرب كانوا يئدون البنات... ولو كان العرب هكذا فكيف تناسلوا وتكاثروا... وكيف تسنّى للرجل أن يتزوّج بأكثر من امرأة... وكيف حملت أسماء القبائل الكبرى في العرب دلالات على الأنثى مثل: كندة، وثعلبة، وساعدة، وبني أمية... وكيف اشتهرت نساءٌ ذوات مكانة مثل سيدتنا خديجة بنت خويلد الغنية الموقّرة، ومثل هند بنت عتبة زوج أبي سفيان أم معاوية أول ملوك الإسلام...

بل وقد عبد العرب قبل الإسلام اللاّت والعزّى ومناة... الإلهات الثلاث...

ومن عجائب العربية أن فيها المفرد الذي لا يمكن جمعه والجمع الذي لا يمكن إفراده... المفرد هي المرأة... والجمع هو نساء...

وأيضاً إن جميع مصادرها المسمّاة بالصناعية مصادرها الدالّة على الأمور الكلية الإجمالية مؤنثة: الألوهية، الربوبية، الإنسانية، العالمية، الواقعية، الرمزية... بل الأغرب إن في اللغة الفصيحة تلحق الهالة المؤنثة بالرجل الذي حاز مكانة عالية مثل: علاّمة، فهّامة، نابغة... والعجب العجاب أن لفظ الرجال إذا جُمع لذوي مكانات في الجماعة قيل: رجالات.

"الأمومة طبيعة، والأبوة ثقافة، الأمومة يقين، والأبوة غلبة الظن، الأمومة أصلٌ في الأنثى والأبوة فرعٌ مكتسب".

في فجر وعي الإنسان بذاته وبالعالم ارتبطت فكرة الوجود الحيّ بالدم... فقد عرف الإنسان الأول أن هذا الدم هو سرّ الحياة في الإنسان والحيوان، فما دام الدم يجري فيه فهو حيّ، وإذا جرى منه بالكامل مات... فالدم سرّ الحياة. والدم في الأنثى يفيض كل شهر وكأنه إعلان دوري لامتلاكها سرّ الحياة...

لديها سائل آخر مقرون بمادة الحياة وهو "اللبن"... دم الحيض، واستدارة الثدي، والتعهُّد الفطري الحنون... مثلما عرفنا مسبقاً...

مسألة في القداسة:

القداسة فعل الجماعة لا الأفراد... وما جوهر القداسة إلا أنه إيغال في التبجيل، فهي أقصى درجات الاحترام والإعلاء... وهي غير الإيمان! فالإيمان أساسه ديني، فهو لا يقوم بالعقل وهو عقالٌ له... أما التقديس فأساسه تأمّلي... ومن هنا يُقال إن العمل مقدّس أو الزواج مقدّس أو بناء أو حجر

مقدّس... تقول في تمتمة: "إن ما يأتيني من الخارج باعثٌ لما هو كامنٌ أصلاً في داخلي... ففي منطقة عميقة منّي... تكمن النقطة التي بدأ منها الوجود... النقطة التي خُلق منها الكون... السرّ". هذا ما قالته شخصية الرواية في إحدى زواياها... تلك الرواية أو الموسوعة في حدّ ذاتها... وهذه أول مرة أرى فيها هذا النوع من الروايات...

رواية تدعى "ظل الأفعى" للدكتور العالم يوسف زيدان... أتقدم بجزيل الشكر عنّي وعنكم له في تقديمه لنا هذه المعلومات القيّمة، فهي مستخلصة ومستوحاة، بل مسطّرة من كتاباته، فعملي هنا... هو جمع أفضل ما تفرّق... وترتيب الأديب الذي في داخلي...

وفي النهاية قد تكون إحدى الأنثويات بعد قراءتها لهذه المقالة تسمع صوتاً داخلها تتكلّم هي فيه، وبذلك أطمئنها أنه شيء طبيعي وفطري فلا تخافي... تقول:

محيطاً بلا نهاية...

... وحدي أنا...

سأبقى، وأصير.

أفعى... خفيّة... عصيّة

بانوراما الكتاب

لا أريد أن تكون البداية معتادة بحيث أقوم بوصف أهمية اليوم العالمي للكتاب، وأنه يومٌ يحتفل الناس به وكأنهم يقدّمون وسيلة شكرٍ لما كان السبب في وضعهم اليوم من تطوّر فكري ونقل للعلوم... لكنني أريد أن أتحدّث عن الكتاب بوصفه أرضاً للإنسان غير الأرض... وطعاماً للبعض، ووسيلة اتصال اجتماعية لا غير للبعض... والبعض الآخر يعتبره شعلة الثورات...

يقول ألبرتو مانغويل:

العالم هو صدى كتاب ما...

والكتاب لحم ودم (لحم ودم الكاتب)...

العالم كتاب يريد أن تُحلّ ألغازه...

...

هذا رأي بعض العشاق بحيث تجاوزوا منطق المعتاد وانتقلوا إلى ما وراءئه حتى اعتقدوا أنهم اقتربوا من الحقيقة البسيطة التي تقول: "إن العالم هو الكتاب المنظور"...

أظن أنه علينا أن نوسّع معنى الكتاب في هذا العصر حتى يشمل كل الوسائط المتعدّدة في هذا العصر الكوكبـي... ذلك أن الكتاب هو ما يحوي بين دفّتيه تجربة معرفية تنقلك من مكان إلى مكانٍ أسمى لا ينتهي ولا يُحدّ... فنزرع في جيلنا الصغير تلك الرؤية المشتركة مع الكتاب بحيث يكونُ حيثما يكونوا،كتاباً ينتظرهم ليقرأوه، ليس فقط لفكّ حروفه، بل لفهم العالم أفضل... ولفهم أنفسهم أفضل...

يقول جوزيف جوبرت: "لقد كان هناك وقتٌ أثّر فيه العالم في الكتب، أما اليوم فالكتب تؤثر في العالم"...

من هذه الجملة أنطلق إلى ما أريد، أظن أنه علينا أن نهتمّ بكل روافد التأثير والتأثّر عند الإنسان. ولقد أثبت الكتاب عبر التاريخ منذ القرآن الكريم أنه يستطيع التغيير ويملك القدرة على فكّ الطريق أمام الممكن...

يوم الكتاب العالمي... ليس إلا يوماً يُراد منه توقيت النبضة... نبضة ذلك العشق الذي

يتأجّج كل يوم عند العشاق...

نبضة... تجدّد المعاني عند المحبّين... ونبضة تذكّر الآخرين... بأن الكتاب سيبقى هدىً ورحمة...

ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (البقرة: 2)...

تحية لكل مؤلّف اعتصر عروقه وسكبها في كتاب...

وتحية لكل كتاب احتوى أرواح العظماء بداخله...

وتحية لكل قارئ حاول أن يفهم العالم أكثر...

في قافلة الجَمال...

لم أستطع يوماً وبدون مقدمات تقبّل هذا الشكل القاسي غير المتوازن من أناس متديّنين – وكلنا متدينون – ولكن قلتها لنفرّق بين جمالية الدين وجمال التديّن إذا هناك فرق...

لا أظن أن هؤلاء أنفسهم يظنون ذلك جميلاً، ولا من يؤيّدهم، لأن الكون مرآة تعكس الجمال بكل صدق، والجمال فيها متوازن في صفّ واحد، أما من يشذّ فسرعان ما يُعرف...

ولكن يهدفون بذلك إلى الصبر على الدنيا الزائلة القبيحة كما يقول الأغبياء، فهم يرون أن هذه المرحلة هي عذابٌ للوصول إلى النعيم في الجنة، ولا يدرون أن الله قال وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (الرحمن: 46)...

يا سادتي، الدنيا جنّة، والله جنّة، وصولاً إلى الجنّة الأجمل...

ولم يُحصر الجمال لدينا يوماً في اللباس والهيئة، فللتصرفات والأخلاق جمالية أيضاً. أترى سيدنا محمد بن سيرين عندما كان لا يؤجّر بيوته للمسلمين فسُئل في ذلك فقال: أكره أن أروّع مسلماً، يقصد في ذلك همّ الإيجار...

يا إلهي ما ألطف رونق الأخلاق عندما يسيل جذاباً من قلب مؤمن...

ألا تتّفقون معي على نقصان معيار الذوق... نحن لا نحتاج اليوم لمفهوم الأخلاق أكثر من مفهوم الذوقية، يجب أن نرفع من قدرة الذوق لدينا...

اهتزّت اليوم روح الجَمال الإسلامية، أين نحن من جمال الحركة، فلقد كان للحركة جمال في الإسلام، وما زال الدَّب في الأرض والسعي والانتشار في إرادة النفع والعدوى بالخير، فليس القبوع في المساجد والعزلة السلبية والانكماش إلا قبحاً وشذوذاً...

وللموت أيضاً جمال، أليس جمال قرب موعد اللقاء بين العاشق والمعشوق رائعاً؟ أليس لرؤية النتائج بعد الجهد لذة؟ أليس لاكتشاف الغيب فرحة؟ أليس الارتقاء في الحب وحدوث الجديد في ألوان الوصل مع المحبوب جمالاً؟...

ألم يقل جل جلاله "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"؟... والإحسان من مصطلحات الجمال أيضاً...

فهيا إلى صحوة جميلة أنيقة ذوقية نُعيد فيها تديّننا إلى مشكاة الدين اللطيف، لكي نتوحّد في قافلة الكون المدفوع بالفطرة نحو قمة الجمال. فكفى بجمال الكون باعثاً لنا لجمالٍ إيماني أنيق...

أخطاء قديمة في التفكير (1)

المعرفة نظام تراكمي لا ينتهي ولا يقف... وهو يعتمد على التركيب والتفكيك لخلق مسارات جديدة. ففي كل مرة عندما تتصلّب وتتصنّم فكرة معيّنة بحيث تصبح عائقاً في مسار التطوّر الفكري، وجب علينا أن نقوم بهدم تلك الأصنام وتحطيمها لكي نسمح بمرور الجديد والبناء عليه...

وسأقوم إن شاء الله بعرض بعض الأخطاء القديمة في التفكير على مراحل، وفي سلسلة من المقالات القصيرة التي أتّفق فيها مع الدكتور محمد كامل حسين الذي حاز جائزة الدولة في الأدب والعلوم في مصر "وسنستند" إلى كتابه "وحدة المعرفة"... وأبتدأ كما ابتدأ هو بمشكلة "العلّة الغائية"...

تمهيد: مذهب العلّة الغائية يُعتبر من أكثر المذاهب شيوعاً، بل هو أقرب إلى طبيعة الإنسان، ما يُكسبه اطمئناناً بأنه ليس هناك عبث أو لاغاية... ووصل في حدّ الأخذ به والإيمان به إلى أن أصبح بديهة يقبلها العقل دون أن يرى حقيقة أنها فرض...

تعريف: يقوم هذا المذهب على تحديد أغراض بعينها تُراد لذاتها. وهذه الغايات تؤدّي على نحو ما إلى تهيئة الأسباب التي تنتهي إليها... كأن الغاية تخلق الوسائل التي تؤدّي إليها... ولم يتبيّن أحد كيف تعمل الغايات نفسها على خلق الوسائل المسبِّبة لها... فرجال الدين رأوا أن الله بقدرته يعمل على أن يكون العالم كلّه وسيلة لغايات بعينها، هي عندهم تمجيده تعالى وعمل الخير... أما علماء الإنسانيات فقد افترضوا أن قوة النظم الاجتماعية هي التي تعمل على تهيئة الأسباب لبلوغ غاية هي عندهم خير المجتمع من أخلاق وفضائل... والعلماء ظنوا أن قوة الحياة هي التي تعمل على بلوغ الغايات، هي عندهم بقاء الجنس ومواءمة التركيب الجسمي للبيئة... وهكذا...

وهم سواء في تمكّن مذهب العلّة الغائية منهم جميعاً... ولم يختلفوا إلا في القوة التي تعمل على خلق الأسباب المهنية لبلوغ الغايات...

النشأة: يقول الدكتور محمد حسين كامل إن نشأة هذا المذهب طبيعية ترجع إلى ما بينّاه من أن العقل بدأ تفكيره بأواخر الأمور، وأنه بدأ التفكير بالبحث في نفسه، فلم يكن هناك مناص من أن يجعل نفسه مركز العالم وغايته، وأن يتصوّر أن كل شيء فيه إنما خُلق له ولمنفعته، ولم يكن هناك مناص من أن يقيس الإنسان كل شيء بنفسه، وأن يؤمن أنه أكمل المخلوقات وأشرفها...

اعتراف: لم يخلُ هذا المذهب من فوائد وخدمات أدّاها للحقيقة، فهو الذي أكّد وجود نظام رائع في العالم، وهو الذي أكّد العلاقة بين الغايات وأسبابها... ونشأته في العصور الأولى من التفكير طبيعية، وهو في الأمور البسيطة مذهب لا غبار عليه...

المشكلة: يقول الدكتور: "ولكن التفكير الحديث بلغ حداً أصبح فيه هذا المذهب عقبة في سبيل تقدمه، وأصبح تطبيقه في الأمور الكبرى وفي النظام صعباً، ولعلّ كثيراً من المفكرين يرون الفرق صغيراً بين أن يكون الأصل هو الغاية وبين أن تكون الوسيلة هي الأصل، ولكن الواقع أن الفرق بينهما عند البحث في القوانين العالمية الكبرى فرق شاسع جداً"...

مثال: عندما نقول إن بقاء الجنس أصل رتّبت عليه حياة النمل، وحين تقول إن نظام حياة النمل أدّى إلى بقاء الجنس، يخيّل إلينا أن الفرق بينهما جوهري من حيث المذهب... ولو كان بقاء الجنس أصلاً لأمكن تحقيقه بوسائل أبسط كثيراً ممّا نراه في حياة الحيوان...

نقد المذهب:

1 – **خلط في المنطق:** لأنه يقوم على اتخاذ التوافق بين أمرين دليلاً على أنهما خُلقا ليتوافقا، وعلى أن أكثرهما تعقيداً خلق في أبسطهما الصفات التي توافقه... هذا خلط منطقي لا شك فيه...

مثال: الحيوان مثلاً إذا حُرم البلع وأُعطي غذاءً لا هواء فيه ضمرت أمعاؤه حتى يموت... فالهواء ضروري لوظيفة الأمعاء، ولكن القول بأن الهواء خُلق لينظم وظيفة الأمعاء خلط في المنطق... وليس من المعقول أن تكون هناك غاية واحدة أدّت إلى صفات الهواء، لأن لهذه الصفات أثراً في بلوغ غايات كثيرة لا يمكن أن تكون كلّها عملت على خلق هذه الصفات في الهواء كلٌّ في ما يخصه... ثم إن صفات الهواء بسيطة لا يمكن أن تتوافق والغايات البعيدة المختلفة لو أن هذه كانت عاملاً في تحديدها... بل المعقول أن تكون صفات الهواء الخاصة هي التي أدّت إلى التأثير في تحديد الغايات المختلفة.

2 – **عقم من الناحية الفلسفية:** لأنه يضع للمعرفة حدّاً لا تتعدّاه هي هذه الغايات... ويجعل البحث مقصوراً على ما دون ذلك... في حين أن البدء بالأمور الأولى ثم التدرّج إلى الغايات يجعل المعرفة أمراً لا حدَّ له...

مثال: وقد أدّى مذهب العلّة الغائية في الفلسفة الدينية إلى عجز تام عن تفسير وجود الشر، وعن تفسير وجود الفساد، وعن تفسير وجود الأنواع المختلفة للأحياء وتعدّدها...

3 – **علمياً:** ذلك أنه لم يستطع أحد حتى الآن أن يبيّن الكيفية التي تستطيع بها غاية ما أن تخلق الوسائل التي تؤدّي إليها... والتجارب العلمية تكون دائماً الجمع بين أسباب تؤدّي إلى غاية، ولم يحدث أن وجد العلماء غاية تؤدي إلى أسبابها...

4 – **عقبة في سبيل فهم الكون:** لأن هذا المذهب أصبح عثرة في وجه وحدة التفكير، لأن الغاية التي تفسر العالم كلّه بما فيه من تفصيلات متعدّدة لم تُعرف بعد... وقد أخفقت كل محاولة لتحديدها. وهذا المذهب يرغم الفكر على أن يسير في طريق مغلقة لا مخرج له منها، ويجعل المفكرين يلجأون إلى أنواع من الفروض تزداد تعقداً واضطراباً كلما أرادوا تفسيراً لحادث جديد...

ولا مفرّ لنا إذا أردنا استقامة تفكيرنا أن نستبدل به تفكيراً آخر لا يكون في مقدماته أن هناك أغراضاً بعينها أريد لها أن تتحقّق.

المذهب البديل ورأي الدكتور يقول: إنما يقوم نظام الكون على سلسلة من القوانين، أولها بسيط، ثم تزداد تعقيداً حتى تبلغ التعقيد الذي نراه في الإنسان. وسر النظام الذي نراه فيه، وهو سرّ التوافق بين الأسباب والغايات، يرجع إلى أن هذه القوانين تؤدّي بطبيعتها إلى هذه الغايات...

المذهب الذي ندعو إليه أن هناك قوانين، وأن بين هذه القوانين أفضليات، وأن أفضلها ما كان أكثر تعقيداً، وأن نظامها يؤدّي إلى الغايات، وليست الغايات سبباً في هذا النظام... فهو يرى مثلاً أن الخير ليس غاية أريدت للعالم ثم تهيّأ كلّ ما في الكون لبلوغه... وإلا لكان الشر مُحالاً، والله تعالى في كمال علمه وقدرته قادر على أن يهيّئ أسباب الخير كلها فلا يكون هناك شرّ، إنما وضع الله للكون نظاماً محكماً ينتهي إلى غايات لا مفرّ منها... وهذه الغايات بطبيعة تكوين النظام فيها الخير والشرّ... وسنرى أن ذلك يكون أسهل فهماً حين يتبيّن فيما بعد أن الخير والشرّ ليسا نقيضين، بل قد يكونان درجتين لشء واحد كما أن الحرارة والبرودة لم يعودا شيئين متناقضين في الطبيعة الحديثة، بل هما درجتان لشيء واحد...

هذا وقد شرحنا مشكلة العلّة الغائية، وقد طال الشرح على قدر استطالة المشكلة الغائية... ودائماً ما تصنع الفرقَ تكامليةُ الأطراف والزوايا في الفكر... لذلك نحتاج إلى التعدّد الذي يُكسِبُنا الوفرة الفكرية.

أخطاء قديمة في التفكير (2)

(التفكير الثنائي)

سنتّجه هذه المرة إلى مشكلة قديمة قدم المنطق الأرسطي وقدم ألوان الأبيض والأسود ورؤية العالم من خلالهما... قديمة منذ الإنسان الأول عندما جعل نفسه مركز الكون والمعيار القياسي للحقيقة، حيث صنّف الوجود عن يمينه وعن شماله متخذاً نفسه محوَر المعرفة... وفي هذا المذهب يقول الدكتور محمد كامل حسين في نظريته عن وحدة المعرفة:

"هذا التفكير طبيعي، أصله أن الإنسان جعل نفسه مركز العالم ثم وضع الأشياء كلها عن يمينه وعن شماله، وأصبح الإنسان يقيس الأمور بنفسه، ويرتّبها ترتيباً هو محوره، فالبارد هو ما يشعر ببرودته والحارّ هو ما يشعر بحرارته، والخير هو ما يعود عليه بالخير، والشر هو ما يعود عليه بالشرّ، ومثل ذلك علم الفلك حين

كان علماؤه يعتقدون أن الأرض مركز العالم وأنه كله يدور حولها... فكان هذا علماً بدائياً لا يبلغ به الإنسان من العلم الحق شيئاً"...

سؤال: أين المشكلة إذاً في المذهب؟

يقول: وليس في أخطاء التفكير خطأ أشدّ ضرراً من تبويب طبيعة الأشياء تبويباً قائماً على أمور عارضة لا أساس لها من طبيعة الأشياء، فهو يؤدّي إلى التقريب بين أمور بعيدة كل البعد، ويباعد ما بين أمور قريبة جداً...

والفهم الحقّ لطبيعة الأشياء يقضي على مثل هذه التنظيمات التي تقوم على المقابلة بين صفات فيها عارضة...

وإذا كان الفلك لم يصبح علماً حقاً إلا يوم خلص من الرأي القائل بأن الأرض مركز العالم، فإن التفكير لن يستقيم حتى نخلص من اعتبار الإنسان مقياساً تُقاس به الأمور، وحتى تقلع عن تنظيم الأشياء تنظيماً يقوم على علاقتها بالإنسان...

مثال: ثبت في العلوم الطبيعية أن التفكير الثنائي لا حقيقة له... فالحرارة والبرودة – ومقياسهما الإنسان – أصبحتا درجتين مختلفتين من سرعة حركة الجزيئات في الجسم... وأصبحت تقاس هذه السرعة دون الرجوع إلى ما يحسّه الإنسان...

... وقد ظن الفلاسفة أن الأمر الواحد لا يكون خطأ وصواباً في وقت واحد، ثم تبيّن حقيقة بعينها ثابتة البرهان في مجال بعينه قد لا تكون صواباً في مجال آخر... فتكون صواباً وخطأ في وقت واحد...

وفي الأخير يقول الدكتور: التفكير الحديث يجب أن لا يتقيّد بهذا التفكير الثنائي الذي استقر في طبيعة الإنسان، ولا مفرّ من التخلص من كل ذلك إذا أردنا أن نجعل المعرفة شيئاً متصلاً مستقيماً...

هكذا علينا التخلّص من منطق الثنائية في التفكير والضدّية... من حيث إنك إذا لم تكن في صفّي الذي هو الخير فأنت بالضدّ مع الصف الآخر الذي هو الشر بالمقابل... نرى ذلك في المنطق اليومي والمعاملات اليومية ونسمع به... إذا أردنا أن نتطوّر معرفياً علينا التجاوز والوقوف على درجة مساوية من تقدم المعرفة الكونية والعالمية، لكي ننتج جديداً ذا قيمة يعتبر حجر أساس لما بعده.

دعوة إلى الطفولة

عندما أقول أو تسمع أحداً يقول لك: عد إلى طفولتك أو كن كالأطفال في إحدى صفاتهم... فلا بد لحظتها من أن تضع تحت نظرك وفكرك عدة أمور:

- الطفولة... هي مرحلة "أولية" في شريط الزمان الذي تراكمه على طول حياتك... بمعنى أنك امتداد لهذه الصفة أو هذه المرحلة الزمنية.

- الطفولة... هي التي نقصد بها "الأصولة" في إنسانيتك... ذلك أن الأصل "تركيبي" بمعنى مصاحب لكيانك طالما حييت.

- الطفولة... لا توجد فيها إرادة... بمعنى أنها تسير بما تمليه عليها الفطرة والطبيعة الحيوية الصادقة، وذلك يعني أنها متّسقة مع نظام الكون المرتّب... لأن الإرادة هي محكّ المسؤولية، وهي ما يجعل الإنسان يشذّ عن نظام الكون (هذا لا يعني أنها نقيصة).

- الطفولة... عذرية فكرية، بمعنى أنها تتّحد مع الحقيقة قبل أن تضع الحواجز الإسمية التي هي شيء غير المسمّى.

- الطفولة... لا تعرف الأقنعة، فهي شفافة يرى الخارج الداخل، ويعكس الداخل إلى الخارج، فلا يحتاج إلى أنشطة تخفي الحقيقة ما يؤثّر على صفاء النفس.

- وأخيراً الطفولة... لا تكفّ عن طرح الأسئلة... فهي تريد أن تفهم وجودها لتعانقه... فالطفل نشاط فكري مستمرّ لمحاولة الفهم... وهو برأيي ما يحقّق وجودي كإنسان متطوّر...

وأتركككم مع كلمات الدكتور الكبير مصطفى محمود (رحمه الله) في يومياته على نصّ الليل يقول:

"حينما كنّا أطفالاً كانت الدنيا تبدو في عيوننا متحفاً رائعاً مليئاً بأشياء غريبة مذهلة مدهشة... وكنّا لا نكفّ عن الدهشة كلّما وقعت عيوننا على شيء... ولا نكفّ عن السؤال... ولا نكفّ عن الفضول... ولا تُشبعنا إجابة... إذا قالوا لنا هذه شجرة... عدنا نسأل بكل براءة... وما الشجرة؟... فيقولون لنا... نبات أخضر... وما النبات الأخضر... نبات له جذور وفروع وأوراق... آلاف الأسئلة ولا نهاية ولا شبع... ولا جواب يشفي غليل العقل المتطلّع إلى الحقيقة...

...

لا شيء يضيء هذه الحياة سوى اللحظات الطفولية... اللحظات التي نرتدّ فيها إلى طفولتنا وبراءتنا، ونشاهد الحياة في بكارتها ونظافتها وعذريتها من قبل أن تدنّسها الكلمات... لحظات الصحوة والانتباه والرؤى الطاهرة التي تقفز بنا عبر أسوار المألوف والمعتاد وتكشف لنا وجوهاً أخرى من وجوه الحقيقة...

...

وهذا أعمق ما في الطفل... تلك البراءة التي لا تعرف الخوف ولا الخجل ولا الكياسة ولا المجاملة... حينما يرفعه إلينا الطفل وجهاً يقطر بالبراءة والسذاجة ليسألنا:

من أين جئتم بـي إلى هذه الدنيا؟...

كلنا أرحنا أنفسنا من الأسئلة ومن الأجوبة... وشغلنا أنفسنا بما نأكل اليوم وما نشرب... وكيف نقتل ملل هذا المساء وكيف نوقع المرأة في حبائلنا...

ولكن الطفل البريء العميق... مشغول... وهو يطرح علينا سؤاله بكل براءة...

ومن هذه اللحظات النادرة... من هذا القلق الطفولي العميق الذي يهتك ألفة الأشياء المألوفة فتبدو غريبة غير مألوفة... تتدفّق الأسئلة التي يتألّف منها فكر الإنسان وحضارته وتقدّمه... بدافع هذا القلق النبيل يعيد الإنسان النظر في كل شيء... ويرفع المنظار المبتذل الذي يضعه على عينيه ويكفّ من الرؤية العادية المبتذلة... ويبدأ في تقدير الأشياء بمعيار جديد، ويحلّق فوق مستوى غرائزه... ويرى أبعد من أنفه، ويصلح من هندامه... ويطوّر من تفكيره، ولا يعيش ويموت كذباب ملتصق بالعسل"... (مصطفى محمود، يوميات نص الليل، ص 9 – 5)...

نقدُ الشمس...

الاستقرار ليس دائماً حالة صحية... والأحادية في عالم الأفكار كارثة قد تبدو في البدء أنها الصواب لكن سرعان ما تحرق كل شيء تماماً مثلما تكون الشمس ظاهرةً دائماً... أي نهاراً بالكلية وباستمرار... ولو كان من إيجابيات ذلك تجلّي الوضوح...

نعم، قد يكون ظلام الليل ومشكلاته أمراً ضرورياً لصيرورة الحركة الحية في المجتمع... وتضادّ الآراء وتدافع الناس لا بد منه، فكما قلنا سابقاً، لا تنمو الحياة من غير الثنائية... فدائماً هناك معادلة بين طرفين يسعى كل منهما للتوازن...

ولو توازنّا لانتهت المهمة... ومن هنا يجب أن نعلم أنه لا يمكن حلّ كل المشكلات... ولا يمكن أن يصبح المجتمع في

حالة تشابه وتناسخ... إلا إذا كانت هناك طفرة غريبة... ومن أمثلتها: "أن يكون هناك مصنع فكري للنسخ يُخرج بشراً كلهم متشابهون في التفكير وبعض الأحيان في المظهر تماماً كالورق في المطبعة"...

أي إنه لو حصلت هذه الظاهرة المناقضة للطبيعة... فإننا نعلم بأنها حصلت بتدخل البشر عن عمد لمسايرة رأي عن رأي... أو بالأحرى لفرض طريق واحد في نظرهم هو الموجب... والباقي قيمته بالسالب...

قلنا لو انتشرت مثل هذه الظاهرة لدى أكثر الناس، أي أنهم يدينون بفكر واحد... يعني أن لدينا حالة من الشذوذ المفتعل... يكون فيه طرف مستفيدٌ من ذلك عادةً...

قرأت كتاب الدكتور علي الوردي "مهزلة العقل البشري"... وكان ممّا أكّد عليه دائماً هذه الظاهرة قائلاً:

"إن المجتمع البشري لا يستطيع أن يعيش بالاتفاق وحده، فلا بد أن يكون فيه شيء من التنازع أيضاً لكي يتحرك للأمام" (ص 20)... ويشبّه هذه الظاهرة بمثال رائع ويقول: "إذا رأيت تنازعاً بين جبهتين متضادّتين في مجتمع، فاعلم أن هاتين الجبهتين له بمثابة القدمين اللتين يمشي بهما" (ص 21)...

ويقول أيضاً: "في الواقع إن البشر لن يصلوا إلى الأهداف الاجتماعية التي ينشدونها، فهم سيظلّون دائبين في حركتهم نحو تلك الأهداف... وسر الحياة الاجتماعية كامن في هذه الحركة

الدائبة... الحياة عبارة عن تفاعل وتناقض وتنازع، ولولا ذلك لما كان هناك شيء اسمه حضارة أو مجتمع" (ص 77)...

ويتجلّى في كتابه عن هذه الظاهرة الاجتماعية، حتى إنه قال إن مظاهر الخلافة الأموية والعباسية وتحوّل الدولة الإسلامية إلى مُلك، وإن كان فيها سلبيات كثيرة وتجاوزات خطيرة، لها فوائدها من هذه الرؤية... حيث لولاها لما حدث الاهتمام بمدى قوة الأمن والحماية المستمرة، وبالأخص لما تطوّرت بعض العلوم والفنون الجمالية من نحت ورسم وموسيقى وعمران...

ونحن نعلم أن المجتمع بلا مشكلات، هو مجتمع إما خيالي وإما خامل... وقد تحدّث علماء التاريخ والتطوّر البشري بأن الذي يجري من تأخّر في أفريقيا سببه أن كل شيء كان في القدم موجوداً لديهم فلم يكن لديهم تحديات يتطوّرون من خلالها...

وقد قال الله عز وجلّ في كتابه في قديم الأزل: ...وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ... (البقرة 251)...

هذه الآية هي البداية لأول ما بدأه الدكتور جاسم سلطان في كتابه الرائع أيضاً وهو "قواعد في الممارسة السياسية"، وهو يوصّف سبب نشوء الظاهرة السياسية قائلاً:

"إن وجود الإنسان لازمه ثلاثة أوضاع: 1 – الاختلاف؛ 2 – التنوّع؛ 3 – النُّدرة... ومنها تكوّنت الظاهرة السياسية متمثّلة في جوهر الصراع والتحكم في هذا الصراع المتكوّن من طرفين أو أكثر... ومحاولة تسوية الخلافات الإنسانية (ويقول مؤكداً)... إنها صفة لازمة وحتمية للحالة البشرية" (ص 31)...

والتنازع والاختلاف... حقيقة لا بد من إقرارها... فالأفضل من التصدّي لها... هو احتواؤها وتعلّم التعايش معها، وخلق الدوائر المشتركة بين كل الأطراف... كما كان يفعل فقهاؤنا الأربعة الثقات من احترام لهذه الحقيقة والتعايش معها بكل انسيابية عاقلة...

وأختم مقولات الدكتور علي الوردي في هذا الصدد، ويقول فيها بذكاء: "فلا بد في كل حضارة من وجود أناس غير راضين... وهؤلاء هم وقود الحضارة، إذ يدفعونها دفعاً إلى الأمام على توالي الأجيال" (ص 99)...

إذاً، لفهم الواقع بجدية علينا فهم هذه الظاهرة المهمة... كي نكون أصحاب فكر يكون تياراً كهربائياً يسري في أسلاك متمثّلة في أهل المجتمع... بدلاً من أفكار مثالية كهرباؤها مقطوعة من برجها العاجي... أو تكون 220V، أي لا تصلح للسريان في أسلاك المجتمع، فإما لا تنيرها وإما تحرقها...

عن الحرمان..

في أول مرة نسمع فيها هذه الكلمة سرعان ما يتبادر إلى أذهاننا فكرة الفقر والناس المحرومين المحتاجين... ذلك أننا نملك تصوّراً مرسّخاً عن معنى الحرمان المادي فقط... وهذا شيء طبيعي في عصرنا السوقي – أقصد من الناحية الاقتصادية – أقول هذا صحيح أن تتبادر إلى أذهاننا فوراً فكرة الحرمان المادي كأول خاطرة، لأننا نعيش في عصر عصبه ولبّه الاقتصاد وحضارة السوق...

ولكن هل هناك أبعاد أخرى للحرمان؟... نعم... وأوّلها بيولوجياً... فقد يعرف أكثرنا أن أجسادنا تحتاج إلى عناصر غذائية تدعى بالفيتامينات لكي نعيش حياة صحية، بل لنعيش أساساً... وهذه الفيتامينات نوعان، منها ما نصنعه نحن داخل أجسادنا ونستطيع توفيره في أي وقت... ونوع آخر لا نستطيع تصنيعه داخلنا ولا توفيره بذواتنا، بل لابد من أن يأتينا من الخارج كإضافة... وهذه الفيتامينات عندما لا يأخذها الجسد لفترات طويلة يصاب بأمراض تدعى بالحرمان الغذائي...

هذا في البيولوجيا... لكن الذي يهمّنا أكثر ويغيب عن أعيننا هو البعد النفسي والاجتماعي للإنسان وعلاقته مع الحرمان...

ويقول الدكتور محمد كامل حسين في كتابه "الوادي المقدس" موضحاً لماذا لم ينتبه كثير من الناس إلى فكرة الحرمان النفسي وأسبابه: "الواقع أنه ليس من السهل أن يقع التفكير الطبيعي على معنى الحرمان كعامل من العوامل القوية في تكييف حياة الأفراد والجماعات... ذلك أنه إذا أراد الإنسان أن يبحث عن أسباب حادث بعينه فإن المنطق الطبيعي يدعوه إلى البحث عن ذلك في الحوادث التي سبقته، ليتبيّن أيها أدّى إليه... أي إن البحث يكون عادة عن الأسباب الإيجابية... وليس من الطبيعي أن يبحثَ الإنسان عن علّة حادث ما باستقصاء ما لم يحدث... أي عن الأسباب السلبية، وهذا بالضبط نوع التفكير الذي لا بد منه إذا أردنا دراسة الحرمان... وهو تفكير غير عادي ثم هو عسير... وأصعب ما فيه أن الإنسان لا يكاد يهتدي إلى وسيلة لتنظيمه، ويبدو لأول وهلة أنه من المستحيل البحث في ما لم يحدث عن علّة ما يحدث"...

ويمكننا أن نقول إن المادة الحرمانية هي المادة التي إذا حُرمت منها أصابتك الأمراض وتأثّر بها كيانك كلّه... وسندع صاحب نظرية الحرمان يشرح لنا ويكمل ما يقصده من الحرمان وبعض قوانينه... يقول:

"**أولاً:** لا يُعدّ النقص العام حرماناً، بل يجب أن يكون النقص في مادة من المواد التي تسمّى مواد الحرمان، فنقص الغذاء عامّة لا يُعدّ حرماناً... وقد يكون الغذاء قليلاً ولكنه إذا استكمل عناصره

لم ينشأ عنه مرض من أمراض الحرمان.

ثانياً: مواد الحرمان يجب أن تكون نادرة... فالمواد كثيرة الانتشار التي يستطيع الإنسان أن يجدها في كل مكان لا تُعدّ من مواد الحرمان... ولا تُعدّ منها أية مادة يستطيع الجسم أن يستبدل غيرها بها، ويجب ألا يكون الجسم قادراً على تكوينها من بين المواد الأخرى التي يسهل حصوله عليها.

ثالثاً: أثر الحرمان يجب أن يكون عاماً، وإنما الحرمان يكون من مادة لها أثرها في النشاط الجسمي كلّه وإن كان كل عضو سليماً.

رابعاً: تبيّن من دراسة أمراض الحرمان أنها كلّها تؤدي إلى الضعف وفقد النشاط، ولا نعلم أن الحرمان من إحدى هذه المواد دفع المريض إلى نشاط خاص. هذه الخاصية أوضح ما يفرّق بين النقص العام والحرمان... فالجوع يدفع الناس إلى السعي والتماس الغذاء بقوة وعنف... أما الحرمان فإنه يُقعد صاحبه عن كل نشاط يؤدي إلى الخلاص من دائه.

خامساً: ليس في الجسم وسيلة يعرف بها الإنسان أنه حُرم إحدى المواد، وليس في طبيعتنا ما يدفعنا إلى التماسها في مظانّها، مثلاً... الإنسان عندما يفقد عنصر اليود فلا يمكن أن يهدي الإلهام المحروم إلى ما حرمه، ولعلّ هذا العجز التامّ عن الإحساس بالحرمان هو أخطر مظاهره.

سادساً: من أخصّ صفات مواد الحرمان أن قوّتها لا تتبيّن إلا عند نقصها... فإذا أُعطيت للسليم فإن أثرها يكون ضئيلاً.

على ضوء هذه القواعد نستطيع أن نبحث عن أثر الحرمان في حياة الإنسان وسعادته"...

والعوامل الحرمانية التي يريدها المؤلف للإنسان وحياته الداخلية، تلك العوامل التي إذا حُرم منها أصابته الأمراض وهي:

1 – الحب؛ 2 – الإيمان (أشدّها خطراً وتشويهاً للنفس)؛ 3 – الشعور الفني؛ 4 – القدرة على التأثر بالسرور.

وفي الأخير علينا أن نعرف موادنا الحرمانية التي تحقق لنا السعادة، وهي نسبية باختلاف النفسيات رغم ما يوجد من عناصر مشتركة قد تكون ثابتة عند الجميع، وهي ما ذكرها المؤلف من العوامل الحرمانية... وعندما تسعى إلى المال كغاية قد لا يكون هو مادتك الخاصة، لذلك نرى أن كثيراً من الأغنياء والملوك على مرّ التاريخ لم يسعدوا بالمعنى الحقيقي، بل عاشوا حياة مريضة تخلو من الفيتامينات المكملة للنفس... فابحث عن فيتاميناتك النفسية واحذر الحرمان منها.

الجهل سلطان المستبد

يقول الشيخ عبدالرحمن الكواكبي: "لا يخفى على المستبدّ، مهما كان غبياً، أن لا استعباد ولا اعتساف إلا ما دامت الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه وعماء" (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص 44)...

وهذا ما عرفه النورانيون أو المفكرون الأحرار حينما كانوا نواة عصر النهضة الأوروبية، فنشروا الوعي وفكر إعمال العقل... ومع الأسف (في حالة المسلمين الذين هم أكثر أهل الأرض تأثُّراً بالاستبداد) أن الثورة الفكرية في عصر الرسالة قامت على أمر عقائدي، بل وأوّلي وهو "اقرأ"... حيث كما يعرف القارئون كيف كانت أحوال العرب في تلكم الفترة من جهل وأمية وانتشار لسلطة القديم... فجاء القرآن وكأنه يعلمنا البداية الصحيحة لأي حضارة راقية... وهي البداية المعرفية الصحيحة... فبدأ ب. "اقرأ"، و"علّم بالقلم"، و"ن والقلم وما يسطرون"، و"لا إله إلا الله" (التي هي جوهر الحرية كما هي جوهر التوحيد)، و"قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" لقتل ثقافة القديم الميتة والمُميتة... وهكذا...

ومن هنا علمنا خوف الظالم أو المستبدّ من العلم الذي يتجلّى في الكتب والقراءة. وكيف في عصر العنصرية... أُصدرت أحكام إعدام بحق من يقرأ من العبيد... وفي وقتنا الحاضر كيف تُمنع الكتب وتُحرّم قراءتها في شتّى المجالات... وفي الأوطان العربية كافة...

وأختم بقول الكواكبي: "رأت بعض الأمم الغابرة أن أضرّ شيء على الإنسان هو الجهل، وأضرّ آثار الجهل هو الخوف، فعملت هيكلاً مُخصّصاً للخوف يُعبَد اتقاء شرّه"...

فتأمّلوا معي مَن هو، أو ما هو، هذا الهيكل يا تُرى في هذا العصر؟

في أغوار النفس

أخطأت إن ظننت أنك أنت... أقصد واحد أنت... أقصد لا أنت هناك في داخلك بل... أنتم... نعم، راقب نفسك خلال حياتك... ستجد أنك في مواقف تختلف كلياً عن حالتك الذهنية والقلبية، بل وحركاتك الجسدية التي بها تقرأ الآن مقالتي... (وأرجو ذلك)...

كل يوم يموت فيك شخص... ويولد آخر... تنقرض تصرّفات... وتُخلق أخرى...

حاولت أن أعمل فيها شاطراً... لكن هذا قبل أن أجد مَن أبدع ما أريد قوله بطريقة عجزت عن مجاراتها... ولو افترضنا أنني أجامل شيخنا علي الطنطاوي... فاعتبروها حالة كسل مني لإعادة ما كتب فيه أو ما شابه ما أريد قوله... وهذه الرائعة في كتابه "صور وخواطر"... أتركُكم معها قبل أن أحرق متعتها بتفلسفي...

"أتحسب أنك واحد وأنك معروف، وأنت جماعة في واحد، وأنت عالم مجهول؟ كشفت مجاهل البلاد، وعرفت أطباق الجو، لا تزال أنت مخفياً، لم يظهر على أسرارك أحد. فهل عرفت مرة أن تدخل إلى نفسك فتكشف مجاهلها؟".

ثم يذكر شيخنا بعضاً ممّا تعلّمه من مدرسة الحياة ومدرسة الكتب... بعضاً ممّا استخلصه بخبرة العمر... وإن أعظم ما تحصل عليه خلاصة حياة من تجارب أديب معها... وهذه هي: "إن النفس يا أخي كالنهر الجاري، لا تثبت قطرة منه في مكانها، ولا تبقى لحظة على حالها، تذهب ويجيء غيرها، تدفعها التي هي وراءها، وتدفع هي التي أمامها، في كل لحظة يموت واحد ويولد واحد، وأنت الكلّ، أنت الذي مات وأنت الذي وُلد، فابتغِ لنفسك الكمال دائماً، واصعد بها إلى الأعالي، واستولِدها دائماً مولوداً أصلح وأحسن، ولا تقل لشيء لا أستطيعه، فإنك لا تزال كالغصن الطريّ، لأن النفس لا تيبس أبداً، ولا تجمد على حال، ولو تباعدت النقلة، وتباينت الأحوال... إنك تتعوّد السهر حتى ما تتصوّر إمكان تعجيل المنام، فما هي إلا أن تبكر المنام لياليَ حتى تتعوّده فتعجب كيف كنت تستطيع السهر! فلا تقل لحالة أنت فيها... لا أستطيع تركها، فإنك في سفر دائم، وكل حالة لك محطّة على الطريق، لا تنزل فيها حتى ترحل عنها"...

أنا اليوم عمري 42 ساعة فقط... ذلك أني ولدت لحظة ولادة ابنتي تالين... وتخلّق داخلي شخص جديد غير الذي من قبل، لا أعرفه جيداً ولا هو يعرفني بدوره، لكننا نحاول...

عرفت أن الولادة لا تحصل فقط في غرفة العمليات... وبعد 9 أشهر فقط... لا بل تحصل كل يوم وفي كل لحظة... لكن المهم في ولادتك هذه أن تكون مطابقة لمعنى الولادة الطبيعية... وهي

أن تولد فيك حياة جديدة... وعلمت خلال مراحل الولادة وبينها أن ما يهمّ هو معنى هذه الآية: ...فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ... (الرعد: 17).

حان وقت الفكر

لقد رأينا حركة المجتمع التي تفيض بمجموعة أفكار رائعة ونشاط جيد، ما يعطيك مؤشراً على أننا في حركة متقدّمة نحو الأمام... لكن موقعها ممّا يقول العلماء وروّاد النهضة في منطقة الصحوة، وهذا ما يعطينا مؤشراً على حقيقة إشكالية الأفكار المتجدّدة الآن في الساحة...

لا أحد ينكر أنها ظاهرة صحّية، وتراكمها يُعتبر إيجابياً وفي صالح المشروع النهضوي... لكن ما يكوِّن الدعامة الأساسية لهذا المشروع وما يُعتبر مؤشراً حقيقياً ظاهراً هو ظهور الفكر المتصل نحو الأهداف، وليس الأفكار المبتورة في ما بينها...

الذي أقصده من الفكر هو مجموعة الأفكار التي بينها تناسق متّجه نحو هدف كبير يُخدم به المشروع... ومن الأمثلة: نحن نعلم حركة النوادي القرائية النشطة الآن في عالمنا الإسلامي (وأنا أتكلم عن النوادي القرائية هنا من ناحية تخصّصي وعملي الاجتماعي في هذا الاتجاه)... في كل يوم أو يومين تسمع بنادٍ جديد، يحمل فكرة جديدة... لكن عمل النادي غالباً ما يكون دائري الشكل للإنتاج... أي إن الأفكار التي وُضعت لهذا النادي تعمل في حركة دائرية قاصرة على هذه الأفكار من غير توجّه مستقبلي رأسي نحو توسّعٍ أكثر، والأهم مركز تغيير أكبر...

ومن هنا لماذا لا يطمح النادي أو يخطّط لأن يصبح جمعية كبيرة على مستوى المجتمع تستطيع أن تسهم يوماً في دعم المناهج الدراسية المتعلقة بالقراءة... ونحن نعلم أن أي عملية تغيير في المجتمع تتمّ في عالم الأفكار أولاً... بحيث يتمّ تفكيك المشكلة (عن طريق الفكر) ومن ثم إحلال الحلول (عن طريق الفكر أيضاً)... وبذلك فالمشروع النهضوي الذي نطمح إليه لا يحصل إلا من خلال مشاريع أخرى قائمة بذاتها. والفرق بين الأفكار والفكر أن باقي المشاريع تشترك بالرؤية والأهداف التي تصبّ وتزحف نحو المشروع النهضوي الكبير...

ممرّ الحقيقة...

ذهبت مع زوجتي الحامل في شهرها المنتظر... ومعي أمي وحماتي عمدتا جيش العائلة... ذهبنا إلى المشفى ذلك بسبب علامة تعرفها الأمهات والحوامل ظهرت لنا، وهي دليل على أن موعد الولادة قد اقترب... حالنا في الطريق كمُخرج الأفلام الذي يتخيّر اللقطات التي سوف تظهر في الفيلم الآتي، وجلسنا نتخيّل تلك اللحظات التي تخرج فيها تلك الإمبراطورة تالين التي طال انتظارها حتى وجدنا أنفسنا أمام بوابة الطوارئ من غير أن نشعر بحدود المكان والزمان...

دخلنا على عجل... أملينا الموظف بياناتنا... دخلنا عتبة الممرّ... الممرّ... وأي ممرّ كان... ظاهره ممرّ طوارئ وحالات خطرة... كان هناك فور دخولنا طفل صغير مجبس نصفه الأسفل... وهو يقول لأبيه: بابا تعبان... وهنالك عند الزاوية رجلٌ بدأ يهذي بالكلام وصرخ بالآهات ثم يصمت فجأة ويبدأ يستفرغ كل ما قد دخل في فيه بألم... وأمّه وأخوه بجانبه يتحسّسون ظهره وألمه ويهوّنوا عليه الموقف... وحين ذلك دخلت زوجتي الغرفة الخاصة بالنساء وقعدت أنا في ذلك الممرّ... وأثناء انشغالي مع دخول نجوان، إذ يأتي رجلٌ كهل يدفعه أبناؤه بالعربة نحو الغرفة وهو منتفخ... الرجل رث الحالة مريب الهالة...

وأنا أدقّق في هذه المظاهر وجدت نفسي بدأت أبطئ النظر وبدأت ساعتي البيولوجية تهدأ... وتبدل الممثلون الجسديون الذين في المنظر إلى الممثلين المعنويين... وبدأت أرى معانيَ وأحوالاً استمتعت بها أكثر من المشهد الجسداني المادي...

هنالك... تقرّرت الحقيقة... حقيقة الضعف والصّغر... رأيت كيف أن الإنسان في ثوانٍ يفقد لذة العيش فقط من صداع في رأسه أو ألم في رجله... كيف أنه لا يستطيع إسناد نفسه ولا تقويم جسده... ضعيف ذليل... محتاج للناس... لا تكفيه ذاته... استشعرت ذلك الضعف... استشعرت انقطاع القيومية واستحالتها... فردّدت... لا حول ولا قوة إلا بالله... أين نحن من القوة... لا شيء... لا شيء...

هنا رأيت التعادلية... وجدت مَن في ساعة الألم لا يستطيع أن يخبر الناس عن جحيمه... لكن له قوة عجيبة... مهما يحصل ومهما يكن، لكنه يستطيع أن يردّد التسبيح والتنزيه والحولقة...

رغم كلّ هذا وله هذا التعلّق... هنا برقت لي حقيقة أخرى... مكمن القوة الحقيقة... وكأنه علامة من الله لتصحيح المفهوم... كل القوة من هذا التعلّق... من هذا الوصل... كل القوة من انعدام القوة...

ومن عادتي أن أتساءل عن رؤية الله لأحوال عباده... تساءلت... كيف ينظر الله الآن إلى عبده وهو في شدّة الألم وهذا التفرق والتشتّت ثم لا يترك ذكره وتعلّق لسانه به... وهو يقول: يا ربـي... ولا يقدر على شيء غيرها... قلت لنفسي: سبحانك يا رحيم، إذا كان قلبـي تقطر رحمة من ذلك فكيف بك يا الله يا أرحم بنا من أمهاتنا...

برقت الحقيقة الأخرى... هنا عند الأنواء والشدائد... هنا... تسقط الأقنعة... وتذوب، لتظهر حقائق الإنسان وأفعاله، تلك التي تخرج من باطنه وفطرته... ترى الابن الذي يعقّ أباه أو يكرهه... تراه لحظة انهيار أبيه يهرع له ويخاف ويحنو عليه... يتحسّس رضاه وليس له شغل إلا أن يشفى... ترى الصامت في هذا الممرّ واعتاد الهدوء يصرخ كالوحش النافر... وترى العبقري يصبح غبياً لا يعرف كيف يفكر... وترى الحازم وهو يشكو التردّد... أحوال عجيبة والله... هذه النفس في هذا الممرّ... ممرّ الحقيقة...

خلصت بعد تلك الرحلة إلى أنها رحلة كهذه الدنيا... أنها طارئة... سوف تنقضي عاجلاً أم آجلاً... ككل المرضى الذين في الداخل يخرجون في أي لحظة، وككل الذين في الخارج يدخلون في أي لحظة... لا استقرار في أي حال... لحظة حياة تُكتب... ولحظة موت تمحوها... هي هكذا الدنيا... حالة طارئة...

نهضة المجتمع وسلطة القديم

يتميز أي مجتمع إنساني بأنه يحتوي على عناصر مشتركة بين أفراده على الصعد كافة، وما يهمّنا هو "عالم الأفكار". يتميز هذا الوسط الضوئي، أي "عالم الأفكار"، بأنه سريع الانتشار والتأثير (مثل سرعة الضوء)، والإشكالية تقع عندما تنتشر الأفكار التي تُصنّف في قائمة الأفكار المُميتة – كما يسمّيها مالك بن نبي – أو الميتة. والانتشار في مرحلة زمنية معينة ليس هو الداء الحقيقي، بل عندما تُورّث هذه الأفكار عبر الأجيال حتى تصل إلى مرحلة زمنية لا يُسأل فيها عن فاعليتها أو حقيقتها، ولا تمرّ في قناة فلترة لها تُنقّيها من الشوائب، ويرجع سبب ذلك غالباً إلى أنها قديمة، والقديم في العقل الجمعي (أي عقلية عامة الناس) له مسحة قداسة قوية ومُتجذّرة، فالقديم يستمدّ سلطته من قدمه، وهنا عندما يحتوي الموروث على بعض الأفكار الميتة، أي التي لا تصلح في سياقنا الحاضر والاجتماعي، وأفكار مُميتة أي التي تعمل كالسوس الذي ينخر في الأسس الحضارية بعد أن تكون نخرت أدمغة البشر، تصبح سلطة القديم مشكلة مركزية، ومشكلتنا عندما نتعامل مع هذه الأفكار القديمة أننا نفصلها من سياقها التاريخي والاجتماعي، فنأخذها وكأنها جوهرية ثابتة صالحة لكل زمان ومكان. أي ويا للأسف... مُطلقة.

إذاً عندما نأخذ الأفكار نضعها في سياقها التاريخي والاجتماعي ثم نمرّرها في قناة الفلترة الأولى (ليست مُميتة) ثم نضعها في القناة الثانية (ليست ميتة) أي صالحة لمعاييرنا الزمانية والمكانية والاجتماعية، وخلال هذه المراحل الفلترية أو النقدية تواجهنا عقبات من أهمّها عقبة قدسية القديم، حقيقة الوضع أن القديم يضع سلطة قائمة تحميه، أي كل قديم له سلطة قائمة تحميه (تحمي أفكاره)، والوصية الأهم والأخيرة قبل موت القديم زمانياً (أي فات زمانه) أن اقتل السؤال (ممنوع السؤال)، وهذا هو ما استطاعه أي مجتمع فيه منظومة أفكار بالية (مخوخ) أن يعززه ويقويه، لماذا؟ لأن الإنسان قوته وإنسانيته بالسؤال (حرية الإرادة والاختيار)، فإن فقدها فقد الاثنين: الحرية، والاختيار. والمحصلة النهائية لنهضة المجتمع أن نأخذ بالمبدأ القرآني الشمولي الرائع عندما دعاهم إلى الحق سبحانه فقالوا:

...بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا... (البقرة: 170)، فأتى الجواب إلى كل البشرية، خطاباً مستمِدّاً فاعليته الأبدية من أبدية كلمات الله، ضربة في الوعي الإنساني ...أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ (البقرة: 170). هنا يثار السؤال ويحطّم القديم، ويأتي بدلاً منه السؤال والتفكير وإعادة النظر، ثم يقول بالدليل الصريح والطريقة القرآنية ...قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (النمل: 64). هذا هو معيار الأفكار الصحيح، الدليل والبرهان، وهذه المهمة تبدأ في البيوت والأسرة التي هي وحدة المجتمع المركزية، عندما يُعلَّم الصغير أن هذه المعلومة صحيحة بسبب "هذا الدليل"، وليس لأني أمك وأبوك، وأن أمي وأبي قالا لي كذا، فيخرج الشاب أو الشابة بعد تربية التلقي الخاطئة إلى المجتمع بعقلية خاملة، وحتى يُلحَظ في كلامه مصطلح "قالوا لي"، "أمي وأبويا قالوا" الذي نعاني منه،

وفي النهاية الموروث من الأفكار البشرية "حسَنُهُ حسنٌ وقبيحهُ قبيحٌ". والحقيقة أننا نحتاج من يقتلع هذه الشوائب من القديم ويرميها في حقلها الزماني وينزع قدسيتها بعد أن يوضّح انعدام العلاقة بينها وبين الدين، وهنا تكمن مهمة العلماء في التفريق بينهما، بين الموروث البشري وبين الموروث السماوي.

ليلة رمضان...

قبل يومين من ليلة رمضان كنت مقتنعاً تمام الاقتناع بأن رمضان شهرٌ كريم وجميل، لكن ليس من المنطقي أن نفرح به أو نبتهج فور معرفتنا بقدومه ابتهاج مهووس... وبدأت أرصد حركات التعجّب من والدتي في اليوم الذي بعده عندما علمت بأن رمضان سيتأخّر أكثر، وأصررت على فكرتي أكثر كلما سمعت أحداً أو رأيته يتأثر من ذلك الأمر... لكن عندما سمعت المذيع في التلفاز حين قال إن الليلة هي أولى ليالي رمضان انتابتني قشعريرة غريبة، ثم موجة فرح قوية جعلتني أبتسم بغير إرادتي، وأنقض كل الأسوار التي بنيتها على فرحة الروح... فتفكّرت في حقيقة ذلك بعد وهلة وأدركت أمراً عظيماً في نفسي... فحقيقة هذه النشوة في هذا اللقاء هي أني بدأت أرى طريق نفسي وقد بدا واضحاً كمن كان في صحراء قاحلة ثم وجد لوحةً مكتوباً عليها هنا تجد نفسك... هنا إرادة التغيير... فالله عز وجل جعل رمضان هو الجسر الذي يوصل الإنسان إلى حقيقة نفسه... بدءاً بالتخلي عن الظلال الجسدية شيئاً فشيئاً إلى دهشة الروح تحليقاً بأجنحة الملائكة... كذلك رمضان صورةٌ عن نفسي ذكرني الله بها... نفسي التي تملك الإرادة... إرادة التغيير...

لذلك أتصوّر أن رمضان لا يأتي إلى أحد... بل هو في الحقيقة منطقة تشدّ الرحال إليها... هو واحة روحية قد بدأت السفر إليها من أول السنة...

رمضاني هذه السنة يصحب معي شخصاً جديداً... وهذا ما قد عوّدني عليه... وكأنه يخبرني بسرّه الأبدي وبنبعه الحيوي الذي لا ينفد، نبع الحياة المتجدّد... فكلّ رمضان قد مرّ عليّ منذ أن كنت واعياً بذاتي وبمن حولي... كان يُنبت معي حياةً جديدةً... بدءاً بأهلي، ثم أقربائي، ثم أصدقائي، ثم شيخي، ثم زوجتي، ثم – وفي هذا الرمضان – ابنتي تالين... فهذا أحد أسرار رمضان التي اكتشفتها... فهو يزيد على حياتك حياةً جديدةً... ظاهراً بصورةٍ رمزية... وداخلاً بأنوارٍ روحانية...

هذه الليلة بالفعل عظيمة، فقبيل أذان الفجر بساعة نطقت ابنتي بأول كلمة في حياتها... بابا... لقد كانت أسعد لحظة من لحظات حياتي...

لم أكن أعرف شعور الأب عندما ينادي عليه ابنه... إنه شعور أشبه بشعور القمر عندما تنعكس عليه نداءات الشمس... فتخيَّلْتُني قمراً تنعكس عليه إشعاعات الشمس. كل كلمة من كلمات ابنتي هي ومضة نورانية من وقتي الفلكي... وسرعان ما جاءني الربط بين أحداث اليوم وبين ليلة رمضان... حتى تصوّرته شمساً في كواكب الأشهر يضيئها بنوره ويضيئني بنوره أيضاً... فأنا قمر المجموعة... أعكس نور الشهر الكريم على صفحات روحي كما يسطع القمر بنور الشمس...

ثقافة الرعب...

لا يخفى على أي شخص مظاهر الثقافة الدينية، أو أقصد التي انتشرت باسم الدين، من مشكلات ونزعات غريبة لا تتّسق مع مقاصد الشريعة الكلّية...

وأنا هنا بصدد الحديث عن ثقافة الرعب والتهويل التي انتشرت بيننا في كل الأوساط... ويُشعرك الذي يتبوّأ هذا المنبر أنك على شعرةٍ بين النار والجنة، وأنت في سعيك في الحياة حتى ولو على صواب... وأنك لا تعرف ما قد كتبه الله لك، فقد تعمل طيلة حياتك بالخير ثم فجأة وبفجأة (غير مفسّرة) تجد نفسك (وبهذه الطريقة المفاجئة) وقعت في النار...

الله هو العدل جلّ جلاله، فإذا نحن قَصّرنا بسبب بشريتنا أن نغوص إلى داخل نفس البشر ونرى نيّتهم وقصدهم، أو حتى أن نراهم في كل الأوقات وليس فقط في أوقات اللقاء، فهذا ليس دليلاً على اختلال العدل والقوانين والسُّنن التي شرّعها الله لنا واضحة متّزنة...

ويُدعِّم هذا الشخص المتحدث كلامه ببعض القصص لبعض الصالحين أنهم كانوا يدعون الله طيلة 6 أشهر أن يُبلّغهم رمضان... وإذا بلغوه سألوا الله ستة أشهر باقية لكي يُقبل عملهم... ويا ليت أن تصاغ بطريقة منطقية مثل هذه القصص على أنه سؤال واحد، لا بل قيامٌ لا جلوس بعده...

ولا يغيب عنّا قصة الذنوب، ويا ويله وسواد ليله من يفعل ذنباً صغيراً، فقد يُرمى في الجحيم وفق رأي الرجل... فيعيش في حالة توتر وقلق من أن يموت على غير هداية...

يقول الكاتب الكبير أبو بلال عبدالله الحامد في كتابه المهم "لكي لا نحوّل الإسلام إلى طقوسية" (ص 41):

"قال الله تعالى: وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى، ثم فَصَل فقال عزّ وجل: وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثم رتّب المكافأة على العمل بصورة آلية فقال: ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى (النجم: 39 – 40 – 41)...

بل إن الإسلام بيّن أن الإنسان إنما يوهب الطمأنينة والسكينة النفسية بالإيمان... كما قال تعالى الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرعد: 28)، فذكر الله علاجاً نفسياً للأفراد والمجتمعات... وليس خوفاً يصبّ على عباد الله ليزيدهم رهقاً...

بل إن الإسلام جعل الإيمان موصلاً للفرح الإيجابي، يدفع المشقّات والكوارث والمشكلات:

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا... (يونس: 58)... بل إن الفرح الدنيوي يؤهل للفرح الأخروي كما قال الرحيم الكريم إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (الأحقاف: 13)...

فكيف نضرب كلّيات الشريعة ومقاصدها، التي دلّت عليها النصوص الصريحة الصحيحة، من أجل قول أو موقف عابر أموي أو عباسي فاضل... وكم في ذلك من سوء فهم للسلف الصالح ووضع لتجاربهم النسبية في موازاة النموذج المطلق"...

ويختم قائلاً: "إن ثقافة الخوف تجسيد لثقافة القمع السياسي الكسروي... التي نمت في ظلال القمع الكسروي، فهي تجلٍّ من تجليات الذهن المقموع، الذي يستحلي العذاب الدنيوي، ويتنازل عن حقّه في الكرامة الدنيوية... وتوحي له ثقافة القمع بأن ذلك هو سبيل النجاة في الآخرة".

وفي النهاية ليست المسألة مسألة عناد وضد أحمق... بل هي محاولة للتوازن كي ننهض بمجتمعنا، فنحن نعلم الآن أين كفّة الميزان غلبت من ثقافة وفكر سائد... فنحن لا ننكر أن الله جلّ جلاله كما هو رحيم كريم لطيف... هو أيضاً سريع الحساب وشديد العقاب...

ولكن علينا أن نفرّق بين الأصل والفرع، وبين المطلَق والنسبـي... فأصل روح الإسلام هي الإيجابية... وأصل خطاب الله تعالى في القرآن أيضاً إيجابـي شمولي... وقد رأينا كيف سبقت رحمةُ الله غضبَه في الآيات وفي ذكر ذلك عن نفسه تعالى سبحانه...

مكتبة... وسوبرماركت

ذهبت مع أهلي إلى سوبرماركت كبيرة معروفة في جدة (اسمها فيه قليلاً من البندورة). ثم كعادتي توجّهت فوراً نحو البحث عن عالم الورق وعن أصدقائي المؤلِّفين... بحثت عن المكان الذي كنت أطّلع عليه عادةً، وإذا به قد تغيّر... تمّت عملية توسعة كبيرة في الحيّز المكاني وفي كمّية الكتب... وأصبحت هناك طاولة في المنتصف لمن يريد الجلوس والقراءة... وصراحةً المنظر كان رائعاً جداً حيث ترى المواد الاستهلاكية والغذائية جنباً إلى جنب مع المواد المعرفية... وبدأت أنقّب في الكتب وأبحث فيها حتى شعرت بالملل وبالحزن، إذ إن المادة المعرفية المتوفّرة مركّزة على الحسّ التسويقي أكثر من المعرفي المفيد... وكأن الكتب صُنِّفت على أساس أكثر الكتب قراءةً في العالم العربي، ونحن نعرف "اللستة" المؤسفة وهي: كتب الطبخ، والشعوذة والأدعية ضدّ السحر، والروايات الغريزية... وحتى طريقة الترتيب كانت على أساس التشويق للغرائب والأسماء الممنوعة للكتب... هكذا ظهر المشهد... بأن الكتب مثلها مثل الحليب الذي تاريخه اقترب من الانتهاء ويُجعل في الأمام والواجهة كي يشتريه الزبون قبل انتهاء الصلاحية... (تفكير سوقي بحت)...

لا أنكر أن هناك بُعداً تسويقياً في صناعة الكتب... لكن لمَ لا نضيف "قيمة مضافة" – كما يسمّيها الاقتصاديون – إلى ذلك البعد... من حيث توفير كتب جيدة وذات طابع مفيد للوقت الحالي وهذا الواقع الملتهب الذي نعيش فيه؟... لسنا ضد المعرفة التراكمية (الكَمّ)... ولكن نريد أن نجعلها نقطة تغيير، وأن هذه المكتبة بالفعل تصبح نقطة تحوّل للناس من حيث "الكَيف"... وببساطة يكمن الحلّ في استشارة المختصّين في القراءة والكتب... لفرز شريحة كتب مفيدة بالفعل ورائعة التصميم كي يستمرّ شراؤها... وأيضاً وجود مختصّ في المكتبة كما هناك مختصّ في بيع السمك... يوجّه القرّاء والذين يريدون المبادرة إلى القراءة... فيوجّههم لما يكون أنفع لهم وفق ما يناسب كيانهم. ويعلم المختصّون القراءة هذه التقنيات... وكم رأيت من المبادرات الخجولة من بعض الناس هناك... ولكن ويا للأسف يكون اختيارهم غير صائب عادةً أو غير مفيد، ونحن نعلم كم هي البداية مهمة في القراءة... وفي النهاية أنا أحيّي كل السوبرماركات في وطننا الحبيب التي قامت بفتح مكتبة داخلها... واهتمّت بها... لكن عندي كلمة لكم... أرجوكم فرّقوا بين التسويق المعرفي والتسويق المادي... واجعلوا من مكتباتكم هناك مساحات إنتاج معرفي توازي على الأقل مساحات الاستهلاك التي أهلكت المجتمع من تَبِعاتها...

التكيُّف... ذلك القاتل الخفي

درسنا في مادة الأحياء أن هناك صفة مشتركة بين الكائنات، وهي في الحقيقة ميزة للبقاء تدعى التكيّف... عندما يتعود الدب القطبي ويتأقلم على درجات البرودة المنخفضة جداً هذا يُعتبر من التكيّف...

وعندما يتعوّد الأفارقة على درجات الحرارة العالية والتشميس المستمرّ أيضاً يُعتبر تكيّفاً...

وحين يتعوّد أهل جدّة على تقلّبات المناخ القوية "المفاجِعة" (إذ هناك فرق بين المفاجأة والمفاجعة. الأولى تفيد وتُفرح بعد الصدمة الأولى، والثانية تضرّ وتنكّد من الصدمة الأولى) وأيضاً على اختلاف التضاريس الشارعية والأحيائية الغريبة...

المهم... بديهياً معروف لدينا التكيّف وفوائده. ولكن هل للتكيّف مضارّ أو زوايا خطيرة... أكيييد... ذلك على قول المثل "كل شيء يزيد عن حدو ينقلب ضدو"... وأيضاً النية والفكرة المنطلق منها التكيّف...

وما يهمّنا في المقام الأول الآن هو الإنسان وعلاقته مع التكيّف...

في بعض الأحيان تمرّ علينا مصاعب أو مشاكل تؤثر سلباً علينا بشكل متدرّج ومستمر... وفي بعض الأحيان نتأقلم معها بحيث تصبح جزءاً من حياتنا ومرضاً مزمناً... مثلاً:

(عندما تتعوّد على وساخة غرفتك... في أول يوم تحاول شوية... ورقة ورقتين تشيلها... واليوم الثاني تقول إن الغرفة وسخة وقبيحة وتصبح متضايق وتقعد تقول لازم أنظفها... واليوم الثالث... تبدأ تنسى... واليوم الرابع وهكذا... حتى يبدأ الوعي بهذا الشيء يختفي حتى يصبح جزءاً من حياتك قد لا تراه... حتى ينبّهك أحد من الخارج... يعني خارج نفسك...).

وعلى هذا قس في كل شيء...

كذلك الرتابة والجمود على حياة من غير أهداف... طبعاً المشكلة أننا نعتقد أن هذا الإنسان وقح بحيث نتساءل: كيف لا يرى ما هو فيه، لكن النقطة الخطيرة أننا لم ندرك أنه يمرّ في مرحلة تدعى "التكيّف"...

(يعني أصبح يخرج كل اليوم إلى القهوة 5 ساعات مثلاً... ثم يرجع على النت... وينام... ويخرج حتى تكيّف وأصبح لا يدري ماذا يفعل، يعني زي الآلة "مبرمج"...).

حتى حضارياً قال العلماء إن أهل أفريقيا الخضراء في القديم لم يتطوّروا لأنهم تكيّفوا مع البيئة التي حولهم الغنية بكل شيء...

طيب وكيف العلاج...؟

العلاج يبدأ من... 1 – تغيير الكاميرا؛ 2 – المراجعة؛ 3 – الإرادة؛ 4 – تلحلح...

1- الذي أقصده من تغيير الكاميرا... وهي عملية توقيف الزمن المتسارع لديك لتنظر من بعيد إلى حياتك أو نفسك... وهذه حالة شعورية أنت تستطيع فعلها داخلك... مشكلتنا أننا نمرّ من لحظة الاستيقاظ بتسارع عجيب لدرجة أنك تنسى أن تفكر... يعني كل شيء بيمشي من سنين كما هو... مثل ما تكون رايح على بيت صاحبك وعارفه، فما تفكر في الطريق والشوارع فجأة تحصّل نفسك في بيته...

لازم نعمل كل يوم لو نص ساعة (30 دقيقة) لحظة توقف نرى فيها أنفسنا ومكاننا على خريطة الحياة... وهي ما يُدعى "لحظة التأمّل"...

2- المراجعة: وهي عملية الحساب بعد الرؤية... يعني أنا إيش منقص... أنا كيف علاقاتي... وما ينقصني... وما يجب إنجازه... وتبدأ تحلّ العمليات الرياضية...

3- الإرادة... هي متعلقة بالنفس وليست بالعقل... فالنفس هي التي تقود وليس العقل... العقل نستخدمه في الخطوة السابقة، أما هنا فالنفس هي التي توجّه وتأمر بالتحرّك، وكما يقول سالم القمودي: "الإنسان ليس عقلاً"... والإرادة هي قوة اتخاذ القرار بصدق...

4- تلحلح... يعني بالعامية (تحرّك)... يعني غيّر... يعني كن إنساناً...

وفي النهاية معادلة التكيّف السلبي تكون كالآتي: خطأ/طارئ + لامبالاة + تمرير الزمن = تحجُّر (صنم)...

فلسفتي عن العيد...

فكرت فيها كثيراً، أو بالأحرى شعرت بها أكثر حتى توصّلت لعدة معانٍ أو تجليات أردت المرور عليها بشكل نقاط متتابعة... فهيا بنا:

العيد... طفولة متجددة

يقال إن العيد "فرحة الأطفال وأحزان الرجال"... والمقصود أن العيد هو عيد الطفل، ذلك الكائن النوراني الصغير الذي لم تلوّثه الإرادة البشرية الخاطئة بعد... وكثيراً ما أسمع الأدباء يقولون بنظرية "عيد الأطفال"، ذلك أنهم هم مادة العيد وقوامه وهم سببه... لكن أما دروا أن داخل كيان كل إنسان طفلاً لا يكبر... ذلك الطفل البريء الذي نادى الوجدانيون بإنقاذه دائماً والمحافظة عليه... إن فرحته خارج حدود الزمان لأنه طفل لا يعرف حدود الأرقام... يقول العقّاد في كتابه "أنا" (ص 53): "إن الطفولة هي قوام العيد كلّه، فلولا الأطفال لما استطاع المجتمع أن يوقت الفرح مقدماً بميقات معلوم في يوم من الأيام، ولكن هات للمجتمع أطفالاً يفرحون بالكساء الجيد واللعب المباح، وأنت الكفيل بفرح المجتمع كلّه على الرغم منه"... أليس فينا كلنا ذلك الطفل الذي يفرح بالكساء الجديد واللعب المباح... بلى... فالأطفال الصغار معانٍ مجسّدة... والأطفال الكبار معانٍ مخبأة"...

يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه "وحي القلم" (ص 26):

"أيتها الرياض المنوّرة بأزهارها...

أيتها الطيور المغرّدة بألحانها...

أيتها الأشجار المصفّقة بأغصانها...

أيتها النجوم المتلألئة بالنور الدائم...

أنت شتى... ولكنك جميعاً في هؤلاء الأطفال يوم العيد...!".

... فجدّد براءتك... جدد طفولتك...

العيد... هو عيد القلب

نعم، أنا أؤمن بقوة اللحظات الكونية، ولكني أؤمن أيضاً بأن الإنسان له القدرة على أن يخلقها... لذلك فالعيد هو دائماً معنا أو دائماً ما نملك أسبابه... ويقول في ذلك الشيخ علي الطنطاوي

في كتابه "صور وخواطر" (ص 364): "إن العيد في حقيقته هو عيد القلب... فإن لم تملأ القلوب المسرّة، ولم يترعها الرضا، ولم تعمّها الفرحة، كان العيد مجرد رقم على التقويم".

المنظور الإنساني والزماني للعيد

النفس الإنسانية تحتاج إلى لحظة تشتدّ فيها أسباب الفرح... وقد يكون الإنسان جاهلاً بذلك كي يضع لنفسه مخططاً من أجل هذا... وبسبب ذلك وضع الله عز وجل البعد الزماني المؤقت لكي يكون جرساً يدقّ ليذكر النفس بالاستعداد لتلك التقنية التي تحتاجها كي تمتدّ في العيش بسعادة... لذلك فالعيد هو إنساني قبل أن يكون ظرفاً زمانياً... لأن فينا بعداً أكبر من حدود الزمان، ذلك عندما تشدّ الإنسانية بعضها أياديَ بعض وتتوحّد في الفكرة تصبح هي العيد بتلك المشاركة وبذلك التوحّد في الشعور والفكرة، بها يستطيع الإنسان أن يحطم قيود الزمان والمكان... ويقول جبران خليل جبران في كتابه "النبي" (ص 150): "بيد أن غير المقيّد فيك بالزمان يعرف حقيقة أن الحياة لا تعرف حدود الزمان... والزمان أليس الزمان كالمحبة، لا ينقسم ولا يُستقصى؟ ولكن إذا شئتم أن تقسموا الزمان إلى فصول مختلفة في أفكاركم، فاجعلوا كل فصل من فصوله يحيط بجميع الفصول الأخرى، واجعلوا الحاضر يعانق الماضي بالتذكارات، والمستقبل بالحنين والتشوقات"...

فالعيد هو حب الإنسان لإنسان في لحظة... في العيد شعورٌ بالوحدة العضوية والروحية لدى البشر، وتنمية هائلة لطاقة الكلّ، بحيث يشعر الجزء أنه قطعةٌ من الكلّ، والكلّ أنه تركيبٌ من الجزء... يقول الدكتور عبدالوهاب المسيري في كتابه "رحلتي الفكرية" (ص 43): "أما في العيد فكنّا نُسقط الحدود مؤقتاً من المجتمع كلّه، وكان الصراع الطبقي يخفّ إلى حدّ كبير، إذ كان يعمّ جوٌّ من المساواة الجميلة... فكانت عبارة "كل سنة وأنت طيب" هي العبارة التي يجدّد الناس من خلالها علاقتهم بمفهوم "الإنسانية المشتركة" وبالعناصر الكونية في وجودهم"...

دروس العيد

يقول العقّاد: "كم للعيد من دروس تمرّ بالصغار والكبار، ولا ندري متى تصلح للعظة والاعتبار"... نعم لكلّ عيد درس، ذلك أنها لحظة يحتكّ فيها الإنسان بقوة غير مسبقة بنظامه الاجتماعي. فقد تجتمع الأضداد النفسية في مكان يجمع الأشكال الجسمانية... فأنا مثلاً لست من محبّي الاجتماعيات كعلم أو ظاهرة، أقصد لست اجتماعياً بطبعي، رغم توفّر شروط ذلك ومهاراته في نفسي... ففي كل عيد كنت أتعلّم درساً جديداً لأن ظروف اللحظة تسمح بذلك. ففي لحظة التكثف الاجتماعي واتحاد الفكرة وموافقة الظرف الزماني يحدث حدث خطير... تسقط الأقنعة... وعندما يسقط قناع الإنسان أمامه حلاّن: 1 – إما أن يُظهر حقيقته، وهنا إما اصطدام وإما تكامل... 2 – وإما أن يخفيها بقناع جديد لم يعتد عليه ولم يعتد غيره أن يراه عليه أيضاً، فترى ظاهرة التوتّر داخل الاجتماعات العائلية، أو أياً كانت في مثل هذه اللحظات...

ومن زاوية التعلّم فسقوط الأقنعة يعطينا فرصة أكبر لنرى الحقيقة كما هي... لا كما نريد...

وأما لإخواني المسلمين خاصة... فالعيد "أمل":

العيد مظهر التجديد، فكن كذلك... في العيد رمزٌ لقدرة الإنسان على أن يجعل اللحظة خالدة وأن يحوّل المعاني إلى أسباب فرحته والمادة إلى ينابيع بهجته يغرف منها متى شاء... ففي العيد إشارة إلى قدرة الإنسان على تحويل الواقع إلى جنة ولو للحظات بالنسبة للتاريخ... يُشعره بأن هناك أملاً وأن الدنيا ما زلت تملك إمكانية حصول السعادة...

بحثت عن كلمة أوجهها لأمتي الإسلامية، لكنني لم أستطع أن أجد أبدع من كلمة مصطفى صادق الرافعي الخالدة في ذلك... ولأجعلها دليلاً على أن الحقيقة خالدة، وعلى أن الكتابة في ذلك خالدةٌ أيضاً:

"وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف توجّه بقوّتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت، فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتخرج عليها الأمثلة، فتجعل للوطن عيداً مالياً اقتصادياً تبتسم فيه الدراهم بعضها إلى بعض، وتخترع للصناعة عيدها، وتوجد للعلم عيده، وتبتدع للفن مجالي زينته، وبالجملة تنشئ لنفسها أياماً تعمل عمل القُوّاد العسكريين في قيادة الشعب، يقوده كل يوم منها إلى معنى من معاني النصر... ليس العيد إلا إشعار هذه الأمة بأن فيها قوة تغيير الأيام، لا إشعارها بأن الأيام تتغير"...

وكل سنة وأنتم طيبون...

القابلية للتبعية...

هناك دائماً في الحراك السياسي عوامل داخلية وعوامل خارجية تؤثر فيه... ودائماً ما تكون العوامل الخارجية هي محك النقاش ومنطلق الحديث بين عامة الناس... لعدة أسباب قد يكون من بينها... ضعف الرؤية الكلية... أو التحرّك وفق مبدأ الشمّاعة (أي زحلقة المسؤولية... لمزيد من المعلومات حول مصطلح الزحلقة وفنونها راجع المقالة الأخيرة في المدونة "فن الزحلقة")... أو نفسية العبيد كما يسمّيها الجاحظ، إي الإيمان بمبدأ انعدام التأثير في أي عمل أو حراك على الساحة...

وبعد هذه الديباجة (سمّها إن شئت)... كنت أقرأ كتاب المفكر والمحلل الاجتماعي الأبرز في هذا النصف قرن الدكتور جلال أمين، وهو كتاب "ماذا حدث للمصريين"... كان يتحدّث فيه عن مبدأ الحراك الاجتماعي، أي مركز النسبية الطبقية... وانتقال الشرائح في المجتمع من منطقة إلى منطقة ومن مركز إلى آخر... ومن هذه الفكرة ينطلق إلى الوضع السياسي في مصر، وكيف حدث التغيير من الصلابة إلى السيولة، ومن الوحدة إلى التقوقع حول الذات... ثم ذكر أن أكبر الأسباب في ذلك هي العوامل الداخلية في المجتمع أكثر منها خارجية، ومنها مفهوم القابلية للتبعية الذي هو صقل لمبدأ ذكره العملاق مالك بن نبي (القابلية للاستعمار)...

ودعونا من غير إطالة نذهب معه وهو يحدثنا عن هذا المفهوم وهذه القضية... التي نأخذها ونستفيد منها وفق أسلوب من الخاص لديه (مصر) إلى العام (أي نظام اجتماعي أو دولة)... وقبل أن نستعجل الخلاف في اختلاف المجتمعات لنقرأ أولاً ثم نقارن ونرى بعد ذلك:

"لقد أشار بعض الكتّاب إلى أن هناك فضلاً عن ظاهرة الاستعمار، ظاهرة "القابلية للاستعمار". وقد نعدّل هذا التعبير تعديلاً طفيفاً فنشير إلى "القابلية للتبعية" ونقصد بذالك موقفاً نفسياً لا يتعلق بالضرورة بتحقيق مكاسب مادية من الارتباط بالقوى الخارجية، بل قد يتعلق فقط بضعف الشعور بالولاء للوطن والكرامة القومية، وضعف الحمية والحماس لقضايا وطنية مجردة، والانصراف إلى الاهتمام بقضايا معيشية ويومية، والانشغال بلوازم الصعود الاجتماعي للفرد وأسرته، إن هذا الموقف النفسي قد لا يصل إلى حدّ العمل الإيجابي لتدعيم روابط التبعية للخارج ولكنه يشكل احتياطياً فعالاً لحماية ودعم من يقوم بهذا النشاط الإيجابي...

عندما تبدو لنا السلطة السياسية وكأنها مشغولة عن القضايا القومية بأمور تكنوقراطية بحتة، كإعداد الخطة وإصلاح المجاري وتنظيم المرور، فالأمر لا يرجع فقط إلى مجرد فرض الإرادة الخارجية عليها، وإنما يعكس أيضاً تحولات نفسية للممثلين السياسيين لتلك الطبقات الصاعدة التي انصرف اهتمامها إلى مثل هذه الأمور، وعندما تجد الناس يميلون أكثر فأكثر إلى فهم الديمقراطية

السياسية، لا بمعنى حرية تكوين الأحزاب وحرية الاختلاف حول كامب ديفيد أو العلاقات الخارجية أو العربية، بل بمعنى الكشف عن انحراف الوزير أو الاستجابة إلى مظلوم في ترقية حقّ مناداة المرور وتوصيل المياه إلى الأدوار العليا، فالأمر هنا أيضاً يعكس اهتمامات طبقات تعتبر مثل هذه القضايا اليومية أهمّ مشاغلها، أو ميلاً إلى اعتبار العلاقات الاقتصادية أهم جوانب العلاقات العربية، وإلى اعتبار مطلب الوحدة الأساسية مطلباً عاطفياً من مخلفات الماضي. فالمسألة لا تعود فقط لألاعيب القوى الخارجية وإسرائيل، بل تعكس أيضاً ميلاً حقيقياً لدى الطبقات الاجتماعية الصاعدة إلى إعلاء الاعتبارات الاقتصادية على غيرها، وقلّة صبر لديها على قضايا الانتماء أو التضامن العربي..." (ص 40 – 41)...

لا تعليق...!!

رحلة في كتاب... أو

تبدأ الرحلة عندما تريد الذهاب إلى نهر الشروق الذي تتميز ضفّتاه بنمو نوع من النباتات والثمار النادرة والمفيدة صحياً... طبعاً يقع هذا النهر في مدينة العبيكان الواقعة في قرية الأندلس مول... في مدينة جدة...

فور وصولك إلى هذه المدينة، وبعد أن تأخذ القارب لكي تذهب إلى الضفاف عبر النهر، ستجد أن ملامح السكّان هناك أشبه ما تكون من نسل الفراعنة المعروفين حالياً بالشعب المصري... فيتميّز سكان النهر بأن لهم استقلالية فكرية وحرية قوية، والأهم فهم وعمق غريب فتظن بأن جميع سكّان النهر فلاسفة...

أنا آسف على هذه المقدمة (التي أظن!) الأدبية فقد اشتقت إلى كتاباتي الأدبية... لكن ما أردت قوله إني ذهبت إلى مكتبة العبيكان واشتريت كتاب "ماذا علّمتني الحياة" للدكتور جلال أمين... وهو كتاب عن سيرته الذاتية التي يذكر فيها رحلة عمره خلال سبعين سنة، وما فيها من تغييرات على المستويات العقلية والنفسية والبدنية والروحية كافة... والخاص (أي ما يخصّ شخصه) والعام (أي ما يحيط به)... وهذه الأمور تدور في فلك هو شمسه... شمس تميّزت بفهم الواقع من كتاباتها والصدق في النقد... شخص درس الاقتصاد وبحث في علم الاجتماع وتغلغل في السياسة... وتربّى على الدين لأن أباه هو الكاتب الإسلامي المعروف "أحمد أمين"...

والكتاب كبير كمّاً وكيفاً... وأردتُ أن أعرض لكم بعض المقتطفات الشخصية التي حبّرت عليها وأشرت إليها في كتابي... وهي ليست بديلاً عن الرحلة القرائية. كما أن الصور الرائعة عن مدينة لا تُغني ولا تعطي نفس الإحساس عن التنزّه فيها شخصياً... فهي اختيارات من الكتاب على ما أثار اهتمامي... لكن لن يخلوَ ذلك من فائدة لكم من بُعدين، الأول: أنكم ستتعرفون إلى كتاب مهم جداً وترون ملامح كتاباته من المقتطفات... والثاني أن هذه المقتطفات لا تخلو من الحكمة والفائدة الكبيرة... وعلى هذا يكفي ثرثرة (ومحاولة لإطالة المقالة!)...

....

!..................................

غيّرت رأيي.. فكتاب سيرة ذاتية عن إنسان مثل د. جلال أمين... لا يُحرق بمثل هذه الطريقة...

غير أن الكتاب له وحدة عضوية متماسكة... **(والمقالة طالت حسبما أريد...!!)**

أنا آسف ....

اقرأوا الكتاب...

محاولة للفهم...

أرهقني بحثي في ينابيع المعرفة وعلاقاتها بهذا الإنسان الذي ساد الكون وسيّده... وبعد بحث ليس بطويل اكتشفت أن هذه الكتلة اللحمية كما نظن هي في الحقيقة كتلة معرفية...

نعم... لو بدأنا في البحث عن مدخلات المعرفة وأدواتها لدينا فإن من أولها هي الحواس الخمس... فهي عبارة عن مستقبلات معلوماتية كما هي مستقبِلات شعورية... وكم أهملنا هذه الحواس بأنها وسيلة للمعرفة، مع أنها قد تكون غاية في حدّ ذاتها للمعرفة تتبلوَر في منطقتها... وتُرسَل إلينا جاهزة...

وهناك ما أدعوه بالعمليات الخمس... وهي الذاكرة والخيال والإحساس والإيمان والتفكير... وعلى هذا لو فصّلنا، الإنسان إلى أبعاده... العقلية والنفسية والروحية والجسدية كما أقسمه أنا فإن البعد العقلي واضح بما يحويه من تفكير وتحليل... والنفسي من فطرة مُحركة وعواطف معلوماتية... والروحي من خوارق الشعور والمستقبليات... ونسأل: وما علاقة الكتلة اللحمية، أي البعد الجسدي في الموضوع المعرفي...؟ وهل لها دور في المعرفة؟

والجواب هو نعم... هذه الخلايا المكوِّنة للجسد بينها تفاهم عالٍ ومعلومات مختزنة في ما يدعى "dna وrna" في عقلها الصغير... الذي تستطيع تسميته العقل الجوهري... ورأينا تصرف بعض الخلايا وكأنها حازت أعلى درجات في اختبارات الذكاء المعروفة...

وذلك مما يدلّك على أن الإنسان كله معرفة.

وآخر ما توصلت إليه في مدخلات المعرفة ومستقبلاتها أن الإنسان وعاء بكلّيته للمعرفة... يوزعها بذكاء ونسق معيّن داخله...

إذاً البحث الحقيقي والذكي يكمن في فهم عملية التوزيع هذه...

وهذا أُشير إليه عندما قال الله تعالى للملائكة واصفاً جوهر هذا المخلوق ...إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً... (البقرة: 30)... فالإشارة إلى المعرفة بأن الله يخلف في الأرض في ما عرف... ونحن نعلم أنه لن يخلفه بالنسب المباشر أو بالقرابة أو بأي ماديات...

وعندما قال الله عز وجل ...وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (الكهف: 54)... ذلك أنه لو كان ثابت الجوهر من حيث التركيب لكانت مادته غير المعرفة...

ولكن ما دامت المعرفة هي الجوهر المتحرّك والمتأجّج، إذاً فهو في جدل دائماً بين معرفتين، أو أنه معادلة المعرفة التي تسعى إلى التوازن...

وهذا ما يجعله إنساناً، و"يعلم" بأنه متحرك المعرفة... إذاً، ثابت المعرفة هو في الحقيقة شيء غير الإنسان، بل... نقيض الإنسان...

مكالمة هاتفية مع عربة التسوّق

وقبل أن أنهي يومي تخيّلت أنني استعرت جهاز صديقنا توفيق الحكيم الذي يتحدث به مع العالم الآخر، ولكن مع فرق الزمن والتطوّر، ذلك أنه يملك القدرة على التحدث مع الأشياء... فبدأت أفكر سأتّصل بمَن... بمَن يا ترى...؟ وتذكرت الحدث العظيم الذي جرى في السوبرماركت اليوم... فاخترت أن أتحدّث مع أحد أبطال الحدث، مع أن مدة الاتصال لا تزيد عن دقيقتين... فاتصلت بسيد... "عربة التسوق":

أنا: ألو... السلام عليكم...

عربة التسوق: أهلاً وسهلاً... تفضل... فأنا كنت على انتظارك حسب الموعد الذي اتفقنا عليه...

أنا: سوف أختصر.. سامحني... تعلم أننا لا نملك الوقت الكثير... ما هو إحساس الإنسان الذي يمسك بك في هذا الشهر...؟ أعني ما تصوّره عنك؟ مَن أنت في نظره؟

عربة التسوق: هذه تختلف باختلاف وعي الناس ورؤيتهم للحياة أيضاً... فهناك من يراني مركبته الفضائية إلى كوكب اللذة... وهناك من يراني محرقة المال... وهناك من يراني ضرورة حياتية لا بد منها... وأعجبهم أمراً... هذا الذي يراني سلاحاً موجهاً ومدروساً هندسياً، حيث إن الفراغ الكبير الذي بداخلي هو نقطة استفزاز لدى دافع الإنسان نحو الامتلاء... أتصدِّقُ هذا...

أنا: لست هنا لأحكم، لا وقت لذلك... بماذا تنصح الناس في كلمات مختصرة؟

عربة التسوق: هناك فرق بين مركبة الاستهلاك ومركّب الاستهلاك... فمركّب الاستهلاك يسبق المركبة... فعندما يكون الناس قد رُكّبوا على الاستهلاك المتزايد سوف يندفعون فوراً نحو مركبات ذلك الدافع... عربات تسوّق أو غيرها... وأستغرب حال الناس، فالذي أعرفه من رمضان أنه شهر منتج... والواقع الذي أراه هو رمضان مستهلِك... ورمضان مستهلَك من وقت وتفكير ومال وطاقة في ما يرضي الجسد...

أنا: أشكرك على وقتك...

عربة التسوق: لا مشكلة صديقي... في أي وقت...

عنّي

عبد المجيد حسين تمراز

سعودي من مواليد 1988 في مدينة جدة ومقيم فيها.

بكالوريوس كيمياء حيوية.

مهتم بالقراءة النوعية ومدرب فيها.

مؤسس (كتبجي) www.kotobji.com

من مؤلفاتي:

جنوني مذهبي في القراءة.

كيمياء القراءة.

بوصلة القراءة.

حتى لا تتحول إلى زومبي.

27 خرافة شعبية عن القراءة.

الطفل الكبير.

تويتر وانستجرام: @majeedtimraz0

Majeed.timraz@gmail.com

Notes

[1←]
() كل الكتابات للدكتور محمد عمارة منقولة من كتابه "مسلمون ثوّار".